عِظاتٌ وعِبَرٌ في

بيتِ النُّبوة ﷺ

دُروسٌ تربويّةٌ للأُسرةِ المسلمة

بقلم
عصام محمد الشّريف

دار الإيمان

عِظاتٌ وَعِبَرٌ في

بيت النبوة



ربنا تقبل منا

إنك أنت السميع العليم

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع ٢٩٤١ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى

977-331-258-5

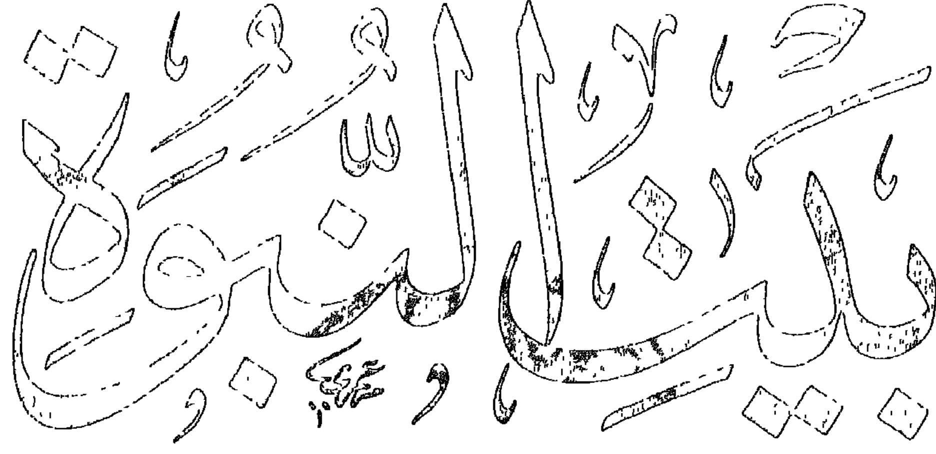
دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية

تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

عظات وعبر في



دروس تربوية للأسرة المسلمة

بقلم

عصام محمد الشريف

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الهمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥١٩٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
اسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

الحمد لله الذي من اعتصم بحبل رجائه وفَّقه وهداه، ومن لجأ إليه حفظه ووقاه، ومن تواضع له رفعه وحماه.

أحمده سبحانه على ما أعطى من الإنعام وأولاه، وأشكره على ما خوَّله بفضله وأسداه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من عرف الله بصفاته ولم يعامل أحدًا سواه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله... اللهم صل عليه وعلى آله وأصحابه، الذين عضوا على سنته بالنواجذ، وتمسكوا بهداه، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فهذه مجموعة من الأحاديث الصحيحة تبين لنا جوانب من حياة النبي ﷺ مع أزواجه، منها ما يتعلق بمعاملته لنسائه وبناته، ومنها ما يتعلق بما يبدر من نسائه من تصرفات، ومنها ما يتعلق بقضايا عامة تتعلق بالحياة الزوجية كحفلات الأعراس وتربية الأولاد، وما يتصل بالعدل بين الزوجات، وكيفية التعامل مع المشكلات الزوجية وعلاجها.

وهذه الجوانب من حياة النبي ﷺ تعطي لنا صورة مشرقة من حياته ﷺ داخل بيته، نحن جميعًا في أمَسِّ الحاجة لدراستها، والوقوف عندها، وتأملها، والإقتداء بها، فهو ﷺ خير قدوة لكل مسلم يرجو الله والدار الآخرة.

ولقد قصت لنا نساؤه ﷺ هذه الجوانب حتى تنتفع بها الأمة المسلمة، والأسرة المسلمة بصفة خاصة؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٤).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي: اعملن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس»[١].

وقال الآلوسي ـ رحمه الله ـ: «أي: اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير. وقيل: أي: تذكرن ولا تنسين ما يتلى في بيوتكن «من آيات الله» أي القرآن «والحكمة» هي السنة على ما أخرج ابن جرير وغيره»[٢].

إن حياة النبي ﷺ مع زوجاته، هي في الحقيقة دروس تربوية لكل أسرة مسلمة، تنشد طريق الآخرة، وترنو إلى المودة والرحمة، وتريد أن تنعم بالسعادة والطمأنينة.

وهذا شاعر يصف السعادة فيقول:

رغيفُ خبزٍ واحدٍ تأكله في زاوية ❊ وكُوز ماءٍ باردٍ تشربه من ساقية
وغرفة نظيفة نفسُك فيها هانية ❊ وزوجة مطيعة عينك عنها راضية
وطفلة صغيرة محفوفة بالعافية ❊ وموردٌ للرزق لا تعرفه الحرامية
يختارك الله له حتى تكون داعية ❊ في مسجد بمعزل عن الأذى في ناحية
تدرس فيه مصحفًا معتمدًا بسارية ❊ معتبرًا بمن مضى من العصور الخالية
خير من الساعات في ظل القصور العالية ❊ تعقبها عقوبة يُصلى بنار حامية
فهذه وصيتي مخبرٌ بحالي ❊ نصيحة من مشفق فهي لعمري كافية

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٤١٥) بتحقيق سامي بن محمد السلامة.
(٢) «روح المعاني» (٢٢/ ٣١) المجلد (١٢).

والله أسأل أن تدور السعادة في بيوتنا حول هذه المعاني البسيطة والعظيمة أيضًا.

ولمَّا قسى وضاقت مذاهبي ❁ جعلت رجائي دون عفوك سُلما

تعاظمني ذنبي فلما قرنتُه ❁ بعفوك ربي كان عفوك أعظما

فمازلت ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل ❁ تجود وتعفو منَّة وتكرما

ولولاك لم يُغوى بإبليس عابدٌ ❁ فكيف وقد أغوى صفيَّك آدما

وإني لآتي الذنب أعرف قدره ❁ وأعلم أن الله يعفو ترحما

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلِّ اللَّهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

الفقير إلى عفو ربه

عصام بن محمد الشريف

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

الأحد ١٢ من جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ

الموافق ١٠ / ٨ / ٢٠٠٣م

الحديث الأول

من مفاتيح السعادة الزوجية

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ (سورة التحريم: ٤)، حتى حجَّ وحَجَجْتُ معه، وعدَلَ[1] وعدلت معه بإداوة، فتبرز ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضأ، فقلت له: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ (سورة التحريم: ٤)؟ قال: واعجبًا لك يا ابن عباس[2]، هما عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه[3] قال: كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية ابن زيد وهم من عوالي المدينة[4]، وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ فينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بما حَدَث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك؛ وكنا معشر قريش نَغلبُ النساء[5]، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبُهم نساؤهم، فطفقَ نساؤنا يأخذن من أدَب نساء الأنصار[6]، فصخبتْ عليَّ امرأتي[7] فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني قالت: ولمَ تُنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل. فأفزعني ذلك فقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن.

---

(١) أي عن الطريق الجادة المسلوكة إلى طريق لا يسلك غالبًا ليقضي حاجته.

(٢) فقد تعجب عمر من سؤال ابن عباس كيف يخفى عليه هذا القدر من العلم مع شهرته وعظمته وفطنته وذكائه الوقَّاد.

(٣) أي القصة التي كانت سبب نزول الآية المسئول عنها.

(٤) أي من سكان قرية قريبة من المدينة.

(٥) أي نحكم عليهن ولا يحكمن علينا.

(٦) من سيرتهن وطريقتهن.

(٧) أي رفعت صوتها.

ثم جمعتُ عليَّ ثيابي[١]، فنزلتُ فدخلت

على حفصة فقلت لها: أي حفصة أتُغاضب إحداكن النبي

ﷺ اليوم حتى الليل؟ قالت: نعم، فقلت: قد خبت وخسرت، افتأمنين

أن يغضب الله لغضب رسول الله ﷺ فتهلكي؟ لا تستكثري النبيَّ ﷺ[٢] ولا

تراجعيه في شيء[٣] ولا تهجريه[٤]، وسليني ما بدا لك ولا يغرنَّكِ أن كانت جارتُك[٥] أوضأ

منك[٦] وأحب إلى النبي ﷺ - يريد عائشة.

قال عمر: وكنا قد تحدثنا أن غسَّان تُنعلُ الخيل[٧] لتَغْزونا، فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته، فرجع إلينا عشاء فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أثم هو؟ ففزعت فخرجت إليه، فقال: قد حَدَثَ اليوم أمر عظيم، قلت: ما هو؟ أجاء غسانٌ؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأهول. طلق النبي ﷺ نساءه - وقال عبيد بن حنين سمع ابن عباس عن عمر فقال: اعتزل النبي ﷺ أزواجه، فقلت: خابت حفصةُ وخسرت، وقد كنت أظن هذا يُوشك أن يكون. فجمعت عليَّ ثيابي، فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فدخل النبيُّ ﷺ مشربةً له فاعتزل فيها؛ ودَخَلتُ على حفصة فإذا هي تبكي، فقلت: ما يُبكيك، ألم أكن حذَّرتك هذا، أطلقكُنَّ النبيُّ ﷺ؟ قالت: لا أدري، ها هو ذا معتزلٌ في المشربة، فخرجت فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهْطٌ يبكي بعضهم فجلست معهم قليلاً، ثم غلبني ما أجد[٨]. فجئت المشربة التي فيها النبي ﷺ فقلت:

---

(١) أي: لبستها جميعها.
(٢) أي: لا تطلبي منه الكثير.
(٣) أي: لا تراوديه في الكلام ولا تردي عليه قوله.
(٤) أي: ولو هجرك.
(٥) أي: ضرتك.
(٦) أجمل منك.
(٧) أي: تستعمل الخيل وتعُدُّه.
(٨) أي: من شغل قلبه بما بلغه من اعتزال النبي ﷺ نساءه.

لغلام له أسودَ: استأذن لعمر، فدخل الغلام
فكلم النبي ﷺ ثم رجع فقال: كلمتُ النبي ﷺ
وذكرتك له فصمَت، فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند
المنبر. ثم غلبني ما أجد فجئت فقلت للغلام: استأذن لعمر، فدخل ثم رجع
فقال: قد ذكرتُك له فصمت، فرجعت فجلست مع الرهط الذي عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم رجع إليَّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فلما وليتُ منصرفًا ـ قال: إذا الغلام يدعوني ـ فقال: قد اذن لك النبي ﷺ.

فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثَّر الرِّمال[1] بجنبه متكئًا على وسادةٍ من أدمٍ حشوها ليف، فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم: يا رسول الله أطلقت نساءك؟، فرفع إليَّ بصره فقال: «لا»، فقلت: الله أكبر، ثم قلت وأنا قائم أستأنس: يا رسول الله لو رأيتني وكنا معشرقريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة إذا قومٌ تغلبهم نساؤهم، فتبسم النبي ﷺ ثم قلت: يا رسول الله لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لها: لا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ ـ يريد عائشة ـ فتبسم النبي ﷺ تبسمة أخرى.

فجلست حيت رأيته تبسم، فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت في بيته شيئًا يرد البصر غير أَهَبَةٍ[2] ثلاثة، فقلت: يا رسول الله ادع الله فَلْيُوسِّع على أمتك، فإن فارس والروم قد وسع عليهم وأُعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي ﷺ وكان متكئًا فقال: «أو في هذا أنت[3] يا ابن الخطاب؟ إن أولئك قومٌ قد عُجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا» فقلت: يا رسول الله استغفر لي.

---

(١) المراد هنا: أن سريره كان منسوجًا بالحصير.
(٢) جمع إهاب، وهو الجلد.
(٣) أو في شك أنت؟.

فاعتزل النبي ﷺ نساءه من أجل ذلك

الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعًا وعشرين ليلة، وكان

قال: ما أنا بداخل عليهن شهراً، من شدة موجدته[1] عليهن حين عاتبه الله عزَّوجلَّ،

فلما مضت تسعٌ وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشة: يا رسول

الله إنك كنت قد أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنما أصبحت من تسع وعشرين

ليلة أعدها عداً، فقال: «الشهر تسعٌ وعشرون ليلة» فكان ذلك الشهر تسعًا

وعشرين ليلة، قالت عائشة: ثم أنزل الله تعالى آية التَّخَيُّر فبدأ بي أول امرأة من

نسائه فاخترته، ثم خيَّر نساءه كلهن، فقلن مثل ما قالت



♥ الدروس المستفادة:

١ - *استحباب التماس طالب العلم خَلَوات العالِم ليسأله:*

وهو مستفاد من قول ابن عباس رضي الله عنهما في الحديث: «حتى حج وحججت معه وعدل وعدلت معه».

وهذا أدب ينبغي أن يتحلى به طالب العلم، فيقبل على شيخه إذا وجده منبسطًا أو غير مشغول، وهذا ما فعله ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: «مكثتُ سنة أريد أن أسال

---

(١) غضبه.

(٢) فتح الباري (٩/ ١٨٧).

- والحديث أطرافه في: (٢٤٦٨، ٤٩١٣، ٤٩١٤، ٤٩١٥، ٥١٩١، ٥٢١٨، ٧٢٥٦، ٧٢٦٣).

عمر، فهو يمكث سنة يحاول فيها أن يتحين فرصةً ليسأل عمر ﷺ هذا السؤال: من المرأتان اللتان قال الله فيهما: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ (سورة التحريم: ٤).

وعدم تحين الوقت المناسب لسؤال العالم أو الشيخ يخسر به طالب العلم كثيراً، ولا مانع أن يقوم بخدمة للعالم بين يدي سؤاله، وهذا ما فعله ابن عباس ﷺ، فقد حمل الإبريق ومشى خلفه وانتظر حتى قضى حاجته، فجاء فصبَّ عليه الوضوء ثم سأله وهو يصب عليه الماء.

كذلك ينبغي للزوجة أن تلتمس الأوقات والأحوال المناسبة التي توافق الزوج ليعلمها فيها أمور دينها، وكذلك ينبغي للزوج أن يلتمس الأوقات والظروف التي تسنح للمرأة الجلوس مع زوجها بعد طول عناء من خدمة البيت والزوج والأولاد، كي يعلمها أدبًا إسلاميًا، أو حديثًا نبويًا، أو يقرأ معها القرآن وغير ذلك من الطاعات التي يحتاجها أهل البيت.

٢ ـ موعظة الرجل ابنته لحال زوجها:

وهو قول عمر بن الخطاب ﷺ لحفصة: **«لا تستكثري النبي ﷺ، أفتأمنين أن يغضب رسول الله ﷺ فتهلكي»**، وهو يبين لنا موقف والد الزوجة من ابنته، ولذلك بوب الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ على هذا الحديث بقوله: «باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها».

وهذا الموقف من عمر بن الخطاب ﷺ يصور لنا كيف كان هذا الجيل يفكر ويتحرك بالقرآن؟.

بعض الآباء والأمهات الآن من أنصار «لا تجعلي مع زوجك مالاً كثيراً حتى لا يتزوج عليك»، والبعض الآخر من أنصار «أنفقي وأكثري من الإنفاق فأنت لست أقل من فلانة وغيرها»، وآخرون يتقون الله عزَّ وجلَّ، فيقومون بواجب النصيحة والموعظة لبناتهم، فيوصونهن بتقوى الله عزَّ وجلَّ، وحفظ مال الزوج في حضوره وغيبته، بل

والبعض يعطي بناته دون علم أزواجهن الفقراء حتى لا يجرحوا مشاعرهم، ولا يشعرونهم بضيق ذات اليد، لذا كان من صفات الزوجة الصالحة: الحرص على مال الزوج وعدم مطالبته بما وراء الحاجة.

إن موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ابنته هو موقف الأب الصالح الذي يريد أن يُؤَمِّنَ لابنته الآخرة، وهذا هو الحب الحقيقي، حب الوالد لولده أو لابنته، وهذا هو عكس الواقع الذي تعيشه الأمة، فالآباء يحاولون تأمين الدنيا لأولادهم، ويبذلون في ذلك الجهد الكبير بترك عقار أو شقة أو مال ونحو ذلك، أما الآخرة فلا تلعب عندهم الدور المطلوب والواجب عليهم؛ لذلك فإن مثل هؤلاء الآباء أعداء لأولادهم بسبب عدم إعانتهم على أمر الآخرة، وكأنهم لا يُسألون يوم القيامة عن رعيتهم حفظوها أم ضيعوها؟!

لذلك فإن قول عمر لابنته حفصة: **«أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسول الله ﷺ فتهلكي»**، رسالة موجهة إلى الآباء بإيصاء بناتهم بوجوب طاعة أزواجهن في المعروف.

ونقول للزوجة: «أفتأمنين أن يغضب الله لغضب زوجك عليك إن كنت ظالمة له، غير مؤدية لحقوقه أو بعضها، غير حريصة على طلب مرضاته»، وهذا مصداق لحديث رسول الله ﷺ لما قال لأسماء بنت يزيد رضي الله عنها: **«انظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك»**[1].

ويُظهر لنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضًا موقفًا عظيمًا له دلالاته، لما ضرب الزبير بن العوام أسماء زوجته، وذهبت إلى والدها أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال لها: **«يا بُنيتي ارجعي فإن الزبير رجل صالح»**، فلم ينف صفة الصلاح عن الزبير لأنه ضرب زوجته، لاسيما وأن الزبير كان رجلاً شديد الغيرة، وكم من رجل عاقل هو ذاك

---

(١) رواه أحمد والنسائي، وقال الألباني - رحمه الله -: إسناده صحيح «آداب الزفاف ص: ٢٨٥».



الرجل الذي لا يفتح بيته لابنته كلما غضبت مع زوجها، فيكون الأمر سهلاً لها وخروجها من بيتها أمراً لا غضاضة فيه، مادام بيت والدها مفتوحًا على مصراعيه.

وذاك موقف آخر يبين لنا موقف والد الزوجة منها إن هي أغضبت زوجها، فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يُؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسًا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا، قال: فقال: لأقولن شيئًا أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فوجأت عنقها؟ فضحك رسول الله ﷺ، وقال: **«هنَّ حولي كما ترى يسألنني النفقة»** فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده . . .» الحديث[1].

فنرى هنا ماذا فعل أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، هل وقفا مع ابنتيهما ضد زوجهما وقالا له: لما لا تنفق على بناتنا النفقة التي يردنها؟! فإنهما من عائلات كذا وكذا؟!

لا، لم يفعلا ذلك، بل بمجرد أن رسول الله ﷺ شكاهما إلى والديهما بسبب سؤالهما مزيدًا من النفقة، فأنكرا على ابنتيهما ذلك، وكيف أنهما يسألانه ﷺ ذلك.

وحينما ترى المرأة أن والدها يقدر زوجها ويقف معه ـ في غير معصية ـ ضد ابنته منكرًا عليها ما تفعل، ستعلم في النهاية أنه ليس لها إلا زوجها وبيتها فتحرص على ذلك أشد الحرص.

---

(١) مسلم (١٤٧٨).

وأما المرأة التي ترى بيت أهلها مفتوحًا لها في أي وقت، وترى أهلها ينالون من زوجها بغير حق، فإن هذا بداية خراب بيتها، وعدم قناعتها بزوجها، فتتمرد وتنشز وتظن أنها ـ للأسف ـ على الحق.

إن على الزوجة الصالحة أن تعي جيدًا أن بيتها وزوجها وأولادها هم حياتها وملاذها بعد الله تعالى، وعلى والد الزوجة أن يكون عونًا لابنته على الشيطان، لا عونًا للشيطان على ابنته، لذا فإن كثيرًا من الآباء والأمهات يخطئون عندما يباركون ابنتهم إذا عادت إلى البيت غاضبة، وأنهم سيزوجونها بمن هو أفضل من زوجها، إلى آخر هذا الكلام الذي نسمعه، ويكون الثمن في النهاية ليس في هدم البيت بقدر ما نخسر من امرأة كان من الواجب أن تكون سيدة حكيمة عاقلة في بيتها.

وأما قول عمر ﵁: «سليني ما بدا لك» مراعاة لحال الزوج، وعدم تكليفه فوق طاقته، وهذا لا يمنع أن يكون الزوج مع زوجته رجلاً كريمًا نبيلاً، لا يؤذي زوجته في أبيها بسبه وشتمه والإساءة إليه.

٣ ـ قول عمر بن الخطاب ﵁ لحفصة: «ولا يغرنَّك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ» فيه فوائد:

الأولى ـ تسمية الزوجة الأخرى بالجارة وليست بالضرة، وكان ابن سيرين يكره تسميتها ضرة .ويقول: إنها لا تضر ولا تنفع ولا تذهب من رزق الأخرى بشيء وإنما هي جارة. وقال القرطبي: اختار عمر تسميتها جارة أدبًا منه أن يضاف لفظ الضرر إلى أحد من أمهات المؤمنين.

الثانية ـ معرفة الصحابة لمحبة النبي ﷺ لعائشة أكثر من بقية زوجاته، ولم يكن في ذلك ضرر لهن ولا للنبي ﷺ .

قال الحـافظ: «المعنى لا تغتري بكون عـائشة تفعل مـا نهيتك عنه فـلا يؤاخذها بذلك، فإنها تدل بجمالها ومحبة النبي ﷺ فـيها، فلا تغتري أنت بذلك لاحتمال أن لا تكوني عنده في تلك المنزلة، فلا يكون لك من الإدلال مثل الذي لها»[1].

ويؤكد محبـة النبي ﷺ لعائشة أكثر من بقيـة أزواجه ﷺ ما جاء في رواية مسلم: **«أعجبها حسنها، وحب رسول الله ﷺ إياها»**.

ويعتقد البعض خطأً أن عدم العـدل في المحبة بين الزوجات نقصٌ، من شأنه ألا يعدد الرجل مادام لا يعدل في المحبة!!

وهذه الدعوى خاطئة ولاشـك، بدليل معرفة الصحابة لمحبـة النبي ﷺ لعائشة أكثر من بقية أزواجه، فضلاً عن المفهوم الخاطئ للعدل الوارد في قوله تعالى: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾ (سورة النساء: ١٢٩).

فالعدل في المحبة والميل القلبي، وهو الذي لا يستطيعه أي إنسان، ولا يقدر عليه هو العدل المراد في هذه الآية، ولا سبيل على الزوج فيه ولا حساب، فالقلوب ليست ملكًا لأصحابها، بل هي بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

أما قوله ﷺ: **«إذا كان عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشقه ساقط»**[2]، فالمقصـود بالعدل هنا هو العدل في النفقة من كسـوة وطعام وشراب فضلاً عن المبـيت، والمعاملة بما يليق بكل واحدة منهن، وهذا يسـير إن شاء الله على من يسره الله تعالى عليه، لاسيما من يقرأ أقوال أهل العلم في ذلك.

وهذا شيء بديهي وموافق للفطرة، فإن الله تعالى لا يشرع لعباده تشريعًا يشق به عليهم، أو يكلفهم فوق طاقتهم.

---

(١) «فتح الباري» (٩/١٩٣).

(٢) رواه أبو داود والترمـذي وابن ماجه والنسـائي، وصححه الألبـاني في «صحيح سنن التـرمذي» برقم (٩١٢).

لذا فإنه يجب على الزوجة التي قد تزوج عليها زوجها ألا تشغل نفسها بهذه المسأله وهي: أي الزوجات أحب إلى زوجها؟! بل تنشغل بالله والدار الآخرة عن وساوس الشيطان والتي لا تصل بها إلا إلى الهم والغم وبلا فائدة[١].

٤ - قول عمر رضي الله عنه: «فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئًا على وسادة من أدم حشوها ليف».

أين تواضع البيت المسلم؟

ولماذا الإسراف أحيانًا هنا أو هناك، تقليدًا لفلان أو لفلانة؟

ولماذا الانشغال بالدنيا والتنافس عليها، إذا سنحت لنا الفرصة من أول وهلة «الدنيا عدوة لله عزَّ وجلَّ، بغرورها ضلَّ من ضلَّ، وبمكرها زلَّ من زلَّ، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها والزهد فيها أمُّ الطاعات، وأُسُّ القربات، ورأس المنجيات»[٢].

«والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها وقلتها، وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها، فإذا أراد الله بعبده خيرًا، أقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار»[٣]. قال تعالى: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ (سورة الحديد: ٢٠)، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى** ﴾ (سورة النساء: ٧٧)، وقال تعالى: ﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾

---

(١) تراجع رسالة «إلى الأزواج العازفين على التعدد» للمؤلف.

(٢) «الإحياء» للغزالي.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٩).

(سورة طه:١٣١)، إلى غير ذلك من الآيات التي تحض على التزهيد في الدنيا والإخبار بحقيقتها، وقد حثنا رسول الله ﷺ إمام الزاهدين على ذلك أيضًا، فقال ﷺ : **«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»**[1].

وقال أيضًا: **«طوبى لمن هدي للإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع به»**[2]، وقال أيضًا: **«من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له»**[3].

وقد كان رسول الله ﷺ سيد الزاهدين وإمامهم وقدوتهم:

(سيد الزاهدين رسول الله ﷺ : عرض الله سبحانه الدنيا، وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه، عبده ورسوله محمد ﷺ فلم يُردها ولم يخترها، ولو آثرها وأرادها، لكان أشكر الخلق بما أخذه منها، بل اختار التقلل منها وصبر على شدة العيش بها.

عن عائشة ؓ قالت: دخلت عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فرجعت إلى منزلها، فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: **«ما هذا؟»**، فقلت: فلانة الأنصارية دخلت عليَّ، فرأت فراشك، فبعثت إليَّ بهذا، فقال: **«رديه»**، قالت: فلم أرده، وأعجبني أن يكون في بيتي؟!، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال: **«يا عائشة، رديه، والله لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»**[4].

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فلم يأخذها، وقال: **«بل أجوع يومًا، وأشبع يومًا،**

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٩٢٢).

(٢) رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما، وصححه الألباني «المصدر السابق» برقم (٣٩٣١).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني «المصدر السابق» برقم (٦٥١٠).

(٤) صحيح، رواه الإمام أحمد.

وسأل ربه أن يجعل رزق أهله قـوتًا، كما في الصحيحـين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«اللَّهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»**.

وفيهما عنه قال: **«والذي نفس أبي هريرة بيده، ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة، حتى فارق الدنيا»**.

وفي صحيح البخاري عن أنس ﷺ: **«ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفًا مرققًا، ولاشاةً سميطًا قط، حتى لحق بربِّه»**.

وفي صحيحه أيضًا عنه قال: **«خرج رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبز الشعير»**.

وفي الصحيحين عن عائشة ﷺ: **«ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البُرِّ ثلاث ليال تباعًا، حتى قبض»**.

وفي صحيح مسلم عن عمر ﷺ: **«لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم ما يجد دَقَلاً[1] يملأ بطنه»**.

وعن ابن عباس ﷺ: **«كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعات طاويًا، وأهله لا يجدون عشاء»**[2].

وفي المسند عن عائشة ﷺ: **«والذي بعث محمدًا بالحق ما رأى مُنْخلاً، ولا أكل خبزًا منخولاً، منذ بعثه الله عزَّ وجلَّ إلى أن قبض»، قال عروة: فقلت: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: «كنا نقول: أف - أي: تنفخه - فيطير ما طار، ونعجن الباقي»**.

وعن أنس ﷺ قال: **لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير، ولقد سمعته يقول: «ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى، وإنهم لتسعة أبيات»**[3].

---

(١) الدَّقل: هو رديء التمر.

(٢) صحيح، رواه أحمد والترمذي.

(٣) رواه البخاري.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «لما حفر رسول الله ﷺ الخندق، أصابهم جُهْدٌ شديدٌ، حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجرًا من الجوع»[(١)].

ولقد توفاه الله، وإن درعه مرهونة عند يهودي على طعام أخذه لأهله، وقد فتح الله عليه بلاد العرب، وجبيت الأمـوال، ومات ولم يترك درهمًا واحدًا، ولا دينارًا، ولا شاة، ولا بعيرًا، ولا عبدًا، ولا أمة.

وعن عروة أنه سمع عـائشة تقول: «كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله ﷺ نارٌ»، قلت: يا خالة، فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: «على الأسودين: التمر والماء» رواه أحمد.

ومن حديث مسروق، قال: «دخلت على عائشة، فدعت لي بطعام، وقالت: ما أشبع من طعام، فأشاء أن أبكي إلا بكيت، قال: قلت: لِمَ؟ قالت: أذكر الحال التي فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا، والله ما أُشْبِعَ في يوم مرتين من خبز البُرِّ حتى قُبِضَ»[(٢)].

وفي المسند عنها: «ما أُشْبِعَ رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين، حتى قُبِض»[(٣)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة: «ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثًا اتباعًا من خبز البر، حتى فارق الدنيا».

وعن أبي طلحة رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا حجرًا حجرًا، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين»)[(٤)].

---

(١) صحيح، رواه أحمد في مسنده.
(٢) صحيح، رواه أحمد.
(٣) صحيح، أخرجه أحمد، وصححه ابن القيم في «عدة الصابرين» ص(١٩٤).
(٤) صلاح الأمة في علو الهمة، دكتور سيد العفاني (٤/ ٢٥٥-٢٥٨).

(فتأمل يا أخي نبيك الأطهر ﷺ ، فـإن فيه أسوة لمن تأسى، وعزاءً لمن تعزى، وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه والمقتص لأثره.

قضم الدنيـا قضـمًا ولم يُعْرها طـرفًا، كان يأكل على الأرض، ويجـلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العادي، ويردف خلفه. أعرض عن الدنيا بقلبـه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتـها عن عينه، لكي لا يتخذ فـيها رياشًا، ولا قرارًا، ولا يرجو فـيها مقامًا، فأخـرجها من النفس، وأشخصها[1] من القلب، وغيبها عن البصر، وكذلك من أبغض شيئًا، أبغض أن ينظر إليه، وأن يُذكر عنده.

جاع رسـول الله ﷺ مع خصـته[2]، وزويت عنه زخارفـها مع عظيم زلفـته، فلينظر ناظر بعقله، أكـرم الله محمدًا ﷺ ، أم أهانه؟ فإن قال: أهانه، فـقد كذب وأتى بالإفك العظيم.

وإن قال: أكرمـه، فليعلم أن الله قد أهان غيره حـيث بسطت الدنيا له، وزواها عن أقرب الناس منه.

فتـأسَّى متأسٍّ بنبيـه ﷺ ، واقتص أثره وولج مولجـه، وإلا فلا يأمن الهلكة، خرج من الدنيـا خميصًـا، وورد الآخرة سليمًـا، لم يضع حجرًا على حجـر، حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربه.

فما أعظم منة الله حين أنعم علينا به سلفًا نتبعه، وقائدًا عظيمًا نطأ عَقِبَه)[3].

---

(١) أي: أبعدها.

(٢) أي: مع خصوصيته وفضله عند ربه.

(٣) «صلاح الأمة في علو الهمة» (٣١٨،٣١٧/٤).

٥ ـ سبب اعتزال النبي ﷺ نساءه:

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وقد اختلف في الذي حرم على نفسه وعوتب على تحريمه، كما اختلف في سبب حلفه على أن لا يدخل على نسائه على أقوال: فالذي في الصحيحين أنه العسل كما مضى في سورة التحريم مختصراً من طريق عبيد بن عمر عن عائشة، وسيأتي بأبسط منه في كتاب الطلاق، وذكرت في التفسير قولاً آخر أنه في تحريم جاريته مارية، وذكرت هناك كثيراً من طرقه. ووقع في رواية يزيد ابن رومان عن عائشة عند ابن مردويه ما يجمع القولين وفيه «أن حفصة أهديت لها عُكَّة فيه عسل، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل عليها حبسته حتى تلعقه أو تسقيه منها، فقالت عائشة لجارية عندها حبشية يقال لها خضراء: إذا دخل على حفصة فانظري ما يصنع، فأخبرتها الجارية بشأن العسل، فأرسلت إلى صواحبها فقالت: إذا دخل عليكن فقلن: إنا نجد منك ريح مغافير، فقال: هو عسل، والله لا أطعمه أبداً، فلما كان يوم حفصة استأذنته أن تأتي أباها فأذن لها فذهب فأرسل إلى جاريته مارية فأدخلها بيت حفصة، قالت حفصة: فرجعت فوجدت الباب مغلقًا، فخرج وجهه يقطر وحفصة تبكي، فعاتبته فقال: **«أشهدك أنها عليَّ حرام، انظري لا تخبري بهذا امرأة وهي عندك أمانة»** فلما خرج قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت: ألا أبشرك؟ أن رسول الله ﷺ قد حرم أمته، فنزلت».

وعن ابن سعد من طريق شعبة مولى ابن عباس عنه خرجت حفصة من بيتها يوم عائشة فدخل رسول الله ﷺ بجاريته القبطية بيت حفصة فجاءت فرقبته حتى خرجت الجارية فقالت له: أما إني قد رأيت ما صنعت، قال: **«فاكتمي عليَّ وهي حرام»** فانطلقت حفصة إلى عائشة فأخبرتها، فقالت له عائشة: أما يومي فتعرض فيه بالقبطية ويسلم لنسائك سائر أيامهن، فنزلت الآية».

وجاء في ذلك ذكر قول ثالث أخرجه ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: «دخلت حفصة على النبي ﷺ بيتها فوجدت معه مارية فقال: لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة، إن أباك يلي هذا الأمر بعد أبي بكر إذا أنا مت»، فذهبت إلى عائشة فأخبرتها فقال له عائشة ذلك، والتمست منه أن يحرم مارية فحرمها، ثم جاء إلى حفصة فقال: «أمرتك ألا تخبري عائشة» فأخبرتها، فعاتبها على ذلك ولم يعاتبها على أمر الخلافة، فلهذا قال الله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ (سورة التحريم: ٣).

وأخرج الطبراني في «الأوسط» وفي «عشرة النساء» عن أبي هريرة نحوه بتمامه وفي كل منهما ضعف، وجاء في سبب غضبه منهن وحلفه أن لا يدخل عليهن شهراً قصة أخرى، فأخرج ابن سعد من طريق عمرة عن عائشة قالت: أهديت لرسول الله ﷺ هدية، فأرسل إلى كل امرأة من نسائه نصيبها، فلم ترض زينب بنت جحش بنصيبها فزادها مرة أخرى، فلم ترض فقال عائشة: لقد أقمأت وجهك ترد عليك الهدية، فقال: «لأنتن أهون على الله من أن تقمئنني لا أدخل عليكن شهراً» الحديث.

ومن طريق الزهري عن عروة عن عائشة نحوه وفيه: «ذبح ذبحًا فقسمه بين أزواجه، فأرسل إلى زينب بنصيبها فردته، فقال: «زيدوها ثلاثا»، كل ذلك ترده، فذكر نحوه.

وفيه قول آخر أخرجه مسلم من حديث جابر قال: «جاء أبو بكر والناس جلوس بباب النبي ﷺ لم يؤذن لأحد منهم فأذن لأبي بكر فدخل ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبي ﷺ جالسًا وحوله نساؤه» فذكر الحديث وفيه: «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة»، فقام أبو بكر إلى عائشة وقام عمر إلى حفصة، ثم اعتزلهن

شهراً، فذكرو نزول آية التخيير، ويحتمل أن يكون مجموع هذه الأشياء كان سبباً لاعتزالهن، وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقه ﷺ وسعة صدره وكثرة صفحه، وأن ذلك لم يقع منه حتى تكرر موجبه منهن ﷺ ورضي عنهن، وقصر ابن الجوزي فنسب قصة الذبح لابن حبيب بغير إسناد وهي مسندة عند ابن سعد، وأبهم قصة النفقة وهي في صحيح مسلم.

والراجح من الأقوال كلها قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها بخلاف العسل، فإنه اجتمع فيه جماعة منهن كما سيأتي، ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أهمها، ويؤيده شمول الحلف للجميع ولو كان مثلاً في قصة مارية فقط لاختص بحفصة وعائشة. ومن اللطائف أن الحكمة في الشهر مع أن مشروعية الهجر ثلاثة أيام أن عدتهن كانت تسعة فإذا ضربت في ثلاثة كانت سبعة وعشرين واليومان لمارية لكونها كانت أمة فنقصت عن الحرائر والله أعلم»[1].

٦ - *فوائد أخرى من الحديث*[2]:

قال الحافظ في الفتح: «وفي الحديث سؤال العالم عن بعض أمور أهله وإن كان عليه فيه غضاضة إذا كان في ذلك سنة تنقل ومسألة تحفظ، قاله المهلب. قال: وفيه توقير العالم ومهابته عن استفسار ما يخشى من تغيره عند ذكره، وترقب خلوات العالم يسأل عما لعله سئل عنه عنه بحضرة الناس أنكره على السائل، ويؤخذ من ذلك مراعاة المروءة، وفيه أن شدة الوطأة على النساء مذموم؛ لأن النبي ﷺ أخذ

(١) «فتح الباري» (٩/ ٢٠٠، ٢٠١).

(٢) «فتح الباري» (٩/ ٢٠٢-٢٠٤).

بسيرة الأنصار في نسائهم وترك سيرة قومه، وفيه تأديب الرجل ابنته وقرابته بالقول لأجل إصلاحها لزوجها. وفيه سياق القصة على وجهها وإن لم يسأل السائل عن ذلك إذا كان في ذلك مصلحة من زيادة شرح وبيان، وخصوصًا إذا كان العالم يعلم أن الطالب يؤثر ذلك. وفيه مهابة الطالب للعالم، وتواضع العالم له وصبره على مساءلته وإن كان عليه في شيء من ذلك غضاضة.

وفيه: جواز ضرب الباب ودقه إذا لم يسمع الداخل بغير ذلك، ودخول الآباء على البنات ولو كان بغير إذن الزوج، والتنقيب عن أحوالهن لاسيما ما يتعلق بالمتزوجات. وفيه حسن تلطف ابن عباس وشدة حرصه على الاطلاع على فنون التفسير، وفيه طلب علو الإسناد؛ لأن ابن عباس أقام مدة طويلة ينتظر خلوة عمر ليأخذ عنه؛ وكان يمكنه أخذ ذلك بواسطة عنه ممن لا يهاب سؤاله كما كان يهاب عمر؛ وفيه حرص الصحابة على طلب العلم والضبط بأحوال الرسول ﷺ. وفيه أن طالب العلم يجعل لنفسه وقتًا يتفرغ فيه لأمر معاشه وحال أهله، وفيه البحث في العلم في الطرق والخلوات وفي حال القعود والمشي.

وفيه: إيثار الاستجمار في الأسفار وإبقاء الماء للوضوء، وفيه ذكر العالم ما يقع من نفسه وأهله بما يترتب عليه فائدة دينية، وإن كان في ذلك حكاية ما يستهجن، وجواز ذكر العمل الصالح لسياق الحديث على وجهه، وبيان ذكر وقت التحمل. وفيه الصبر على الزوجات والإغضاء عن خطابهن والصفح عما يقع منهن من زلل في حق المرء دون ما يكون من حق الله تعالى.

وفيه: جواز اتخاذ الحاكم عند الخلوة بوابًا يمنع من يدخل إليه بغير إذنه، ويكون قول أنس الماضي في كتاب الجنائز في المرأة التي وعظها النبي ﷺ فلم تعرفه «ثم

جاءت إليه فلم تجد له بوابين» محمولاً على الأوقات التي يجلس فيها للناس، قال المهلب: وفيه أن للإمام أن يحتجب عن بطانته وخاصته عند الأمر بطرقه من وجهة أهله حتى يذهب غيظه ويخرج إلى الناس وهو منبسط إليهم، فإن الكبير إذا احتجب لم يحسن الدخول إليه بغير إذن، ولو كان الذي يريد أن يدخل جليل القدر عظيم المنزلة عنده.

وفيه: الرفق بالأصهار والحياء منهم إذا وقع للرجل من أهله ما يقتضي معاتبتهم. وفيه أن السكوت قد يكون أبلغ من الكلام وأفضل في بعض الأحايين؛ لأنه ﷺ لو أمر غلامه برد عمر لم يجز لعمر العود إلى الاستئذان مرة بعد أخرى، فلما سكت فهم عمر من ذلك أنه لم يؤثر رده مطلقًا، أشار إلى ذلك المهلب. وفيه أن الحاجب إذا علم منع الإذن بسكوت المحجوب لم يأذن.

وفيه: مشروعية الاستئذان على الإنسان وإن كان وحده؛ لاحتمال أن يكون على حالة يكره الاطلاع عليها. وفيه جواز تكرار الاستئذان لمن لم يؤذن له إذا رجا حصول الإذن، وأن لا يتجاوز به ثلاث مرات كما سيأتي إيضاحه في كتاب الاستئذان في قصة أبي موسى مع عمر، والاستدراك على عمر من هذه القصة؛ لأن الذي وقع من الإذن له في المرة الثالثة وقع اتفاقًا، ولو لم يؤذن له فالذي يظهر أنه كان يعود إلى الاستئذان؛ لأنه صرح كما سيأتي بأنه لم يبلغه ذلك الحكم.

وفيه: أن كل لذة أو شهوة قضاها المرء في الدنيا فهو استعجال له من نعيم الآخرة، وأنه لو ترك ذلك لادخر له في الآخرة، أشار إلى ذلك الطبري واستنبط منه بعضهم إيثار الفقر على الغنى وخصه الطبري بمن لم يصرفه في وجوهه ويفرقه في سبله التي أمر الله بوضعه فيها، قال: وأما من فعل ذلك فهو من

منازل الامتحان، والصبر على المحن مع الشكر أفضل من الصبر على الضراء وحده. انتهى.

قال عياض: هذه القصة مما يحتج به من يفضل الفقر على الغني لما في مفهوم قوله: «إن من تنعم في الدنيا يفوته في الآخرة بمقداره»، قال: وحاوله الآخرون بأن المراد من الآية أن حظ الكفار وهو ما نالوه من نعيم الدنيا إذ لا حظ لهم في الآخرة. انتهى. وفي الجواب نظر، وهي مسألة اختلف فيها السلف والخلف، وهي طويلة الذيل سيكون لنا بها إلمام إن شاء الله تعالى في كتاب الرقاق، وفيه أن المرء إذا رأى صاحبه مهمومًا استحب له أن يحدثه بما يزيل همه ويطيب نفسه، لقول عمر: لأقولن شيئًا يضحك النبي ﷺ، ويستحب أن يكون ذلك بعد استئذان الكبير في ذلك كما فعل عمر.

وفيه: جواز الاستعانة في الوضوء بالصب على المتوضيء، وخدمة الصغير الكبير وإن كان الصغير أشرف نسبًا من الكبير، وفيه التجمل بالثوب والعمامة عند لقاء الأكابر، وفيه تذكير الحالف بيمينه إذا وقع منه ما ظاهره نسيانها لاسيما ممن له تعلق بذلك؛ لأن عائشة خشيت أن يكون ﷺ نسي مقدار ما حلف عليه وهو شهر والشهر ثلاثون يومًا أو تسعة وعشرون يومًا، فلما نزل في تسعة وعشرين ظنت أنه ذهل عن القدر أو أن الشهر لم يهل، فأعلمها أن الشهر استهل، فإن الذي كان الحلف وقع فيه جاء تسعًا وعشرين يومًا.

وفيه: تقوية لقول من قال: إن يمينه ﷺ اتفق أنها كانت في أول الشهر ولهذا اقتصر على تسعة وعشرين وإلا فلو اتفق ذلك في أثناء الشهر فالجمهور على أنه لا يقع البر إلا بثلاثين، وذهبت طائفة في الاكتفاء بتسعة وعشرين أخذًا بأقل ما ينطلق عليه الاسم. قال ابن بطال: يؤخذ منه أن من حلف على فعل شيء يسير يبر بفعل

أقل ما ينطلق عليه الاسم، والقصة محمولة عند الشافعي ومالك على أنه دخل أول الهلال وخرج به فلو دخل في أثناء الشهر لم يبر إلا بثلاثين. وفيه سكنى الغرفة ذات الدرج، واتخاذ الخزانة لأثاث البيت والأمتعة، وفيه التناوب في مجلس العالم إذا لم تتيسر المواظبة على حضوره لشاغل شرعي من أمر ديني أو دنيوي.

وفيه: قبول خبر الواحد ولو كان الآخذ فاضلاً والمأخذ عنه مفضولاً، ورواية الكبير عن الصغير، وأن الأخبار التي تشاع ولو كثر ناقلوها إن لم يكن مرجعها إلى أمر حسي من مشاهدة أو سماع لا تستلزم الصدق، فإن جزم الأنصاري في رواية بوقوع التطليق وكذا جزم الناس الذي رآهم عمر عند المنبر بذلك محمول على أنهم شاع بينهم ذلك من شخص بناء على التوهم الذي توهمه من اعتزال النبي ﷺ نساءه، فظن لكونه لم تجر عادته بذلك أنه طلقهن فأشاع أنه طلقهن، فشاع ذلك فتحدث الناس به، وأخلق بهذا الذي ابتدأ بإشاعة ذلك أن يكون من المنافقين كما تقدم.

وفيه: الاكتفاء بمعرفة الحكم بأخذه عن القرين مع إمكان أخذه عاليًا عمن أخذه عنه القرين، وأن الرغبة في العلو حيث لا يعوق عنه عائق شرعي، ويمكن أن يكون المراد بذلك أن يستفيد منه أصول ما يقع في غيبته، ثم يسأل عنه بعد ذلك مشافهة، وهذا أحد فوائد كتابة أطراف الحديث.

وفيه: ما كان الصحابة عليه من محبة الاطلاع على أحوال النبي ﷺ جلت أو قلت، واهتمامهم بما يهتم له لإطلاق الأنصاري اعتزاله نساءه الذي أشعر عنده بأنه طلقهن المقتضي وقوع غمه ﷺ بذلك أعظم من طروق ملك الشام الغساني بجيوشه المدينة لغزو من بها، وكان ذلك بالنظر إلى أن الأنصاري كان يتحقق أن عدوهم ولو طرقهم مغلوب ومهزوم واحتمال خلاف ذلك ضعيف، بخلاف الذي وقع بما توهمه من التطليق الذي يتحقق معه حصول الغم، وكانوا في الطرف الأقصى

من رعاية خاطره ﷺ أن يحصل له تشـويش ولو قل والقلق لما يقلقه، والغضب لما يغضبه والهم لما يهمه ﷺ.

وفيـه: أن الغضب والحزن يحمل الرجل الوقور على ترك التأني المألوف منه لقول عمر: ثم غلبني ما أجد ثلاث مرات، وفيـه شدة الفزع والجزع للأمور المهمة، وجواز نظر الإنسان إلى نواحي بيت صاحبه ومـا فيه إذا علم أنه لا يكره ذلك، وبهذا يجمع بين ما وقع لعـمر وبين ما ورد من النهي عن فضـول النظر، أشار إلى ذلك النووي. ويحتـمل أن يكون نظر عـمر في بيت النبي ﷺ وقع أولاً اتفـاقًا، فـرأى الشعـير والقراظ مثلاً فاسـتقله فرفع رأسه لينظر هل هناك شيء أنفس منه، فلم ير إلا الأهب فقال ما قال، ويكون النهي محمولاً على من تعمد النظر في ذلك والتفتيش ابتداء.

وفيـه: كراهة سخط النعمة واحتقار ما أنعم الله به ولو كان قليلاً، والاستغفار من وقوع ذلك، وطلب الاستغفار من أهل الفضل، وإيثار القناعة وعدم الالتفات إلى ما خص به الغير من أمور الدنيا الفانية، وفيه المعاقبة على إفشاء السر بما يليق بمن أفشاه.

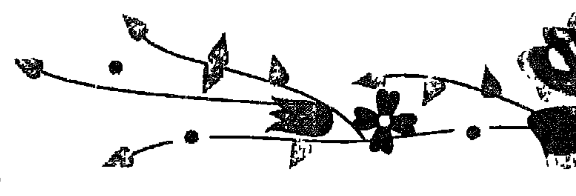


الحديث الثاني
الزوج الوفي

عن عائشة ﵂ قالت: ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتُها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يُقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة؟ فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»[(١)] .

قولها: «ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها» قال الحافظ في رواية عبد الله البهي عن عائشة عن الطبراني: «وكان إذا ذكر خديجة لم يسأم من ثناء عليها واستغفار لها».

قوله ﷺ: «إنها كانت وكانت» قال الحافظ: أي كانت فاضلة وكانت عاقلة ونحو ذلك، وعند أحمد من حديث مسروق عن عائشة: «آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء».



(١) رواه البخاري (٧/ ١٦٦) حديث رقم (٣٨١٨) الفتح.

❤ الدروس المستفادة:

١ ـ وفاء الزوج لزوجته حتى بعد وفاتها:

ففي الحديث بيان ما كان عليه النبي ﷺ من كريم الخصال وعظيم الصفات، من حسن العهد، وحفظ الود، والحلم، وحسن المعاشرة، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حيًا وميتًا، وإكرام معارف ذلك الصاحب:

فعن عائشة ؓ: «استأذنت هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة[1]، فارتاع[2] لذلك فقال: «اللهم هالة»[3] قالت: فغرت، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين[4] هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها»[5].

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ: (ووقع عند مسلم من طريق حفص بن غياث هذه في آخر الحديث، قالت عائشة: فأغضبته يومًا فقلت: خديجة، فقال: «إني رزقت حبها».

قال القرطبي: كان حبه ﷺ لها لما تقدم ذكره من الأسباب، وهي كثيرة كل منها كان سببًا في إيجاد المحبة، ومما كافأ النبي ﷺ به خديجة في الدنيا أنه لم يتزوج في حياتها غيرها، فروى مسلم من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت» وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل

---

(١) أي: صفته لشبه صوتها بصوت أختها فتذكر خديجة بذلك.

(٢) ارتاع: أي فزع، والمراد من الفزع لازمه وهو التغير، ووقع في بعض الروايات «ارتاح» أي: اهتز لذلك سروراً.

(٣) اللَّهم هالة: أي اجعلها هالة.

(٤) حمراء الشدقين: المراد بالشدقين ما في باطن الفم فكنَّت بذلك عن سقوط أسنانها حتى لا يبقى داخل فمها إلا اللحم الأحمر من اللثة وغيرها، وبهذا جزم النووي وغيره.

(٥) الفتح (٧/ ١٦٦) ح(٣٨٢١).

العلم بالأخبار، وفيه دليل على عظم قدرها عنده، وعلى مزيد فضلها؛ لأنها أغنته عن غيرها، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين؛ لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عامًا انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عامًا وهو نحو الثلثين من المجموع، ومع طول المدة فصان قلبها من الغيرة ومن نكد الضرائر الذي ربما حصل له هو منه ما يشوش عليه بذلك، وهو فضيلة لم يشاركها فيها غيرها.

ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها، فيكون لها مثل أجرهن، لما ثبت أن «من سن سنة حسنة» وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق بالنسبة إلى الرجال، ولا يعرف قدر ما لكل منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله عزَّ وجلَّ)[1].

فهلا اقتدى الرجال برسول الله ﷺ الزوج الوفيِّ لزوجته حتى بعد مماتها، ولا يكونوا كمن قلَّ حظه من الوفاء:

(فلا همَّ له من زوجته سوى نصيبه منها، فلا يحفظ حقها إلا ما دام راغبًا فيها، وما دامت في شرخ شبابها، وغضارة نضارتها، وكامل صحتها، ووفرة مالها.

فإذا ما كبرت أو مرضت أو افتقرت، أعرض عنها، ونسي ما كان من سالف الود بينه وبينها، ولم يقدِّر صبرها عليه، وقيامها بحقه.

ومن قلة الوفاء: أن يطلق الرجل زوجته إذا مرض مرضًا يخشى منه الموت، كي يحرمها من الميراث.

ومن ذلك أن يسافر عنها كثيراً دونما حاجة للسفر.

إلى غير ذلك من صور قلة الوفاء التي تدل على لؤم الطبع، وقلة الرعاية لحفظ الزمام.

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ١٧٠، ١٧١).

أما كرام الناس، وأهل الوفاء منهم، فإنهم يحفظون الود، ولا ينسون الإحسان مهما تقادم عليه الزمان.

ومن أولى ما يُعْنَون بحفظه: حق الزوجات اللواتي وهبنهم البر والإخلاص وحسن المعاشرة، فترى أولئك الكرام يحفظون عهود الود، فيذكرون زوجاتهم بالخير، ويدعون لهن، ويقفون إلى جانبهم بالمواساة إذا مرضن أو كبرن أو أصبن ببلية، بل ويحفظون حقهن بعد مماتهن)[1].

ومن قلة الوفاء للزوجة أيضًا ما يفعله البعض إذا تزوج الواحد منهن بزوجة ثانية نسي فضائل الأولى وعشرتها له، وهذا من سوء الطبع وخبث النفس.

فإن العدل يقتضي ذكر محاسن الزوجة الأولى، وعدم نسيان حسن عشرتها له، فكم وقفت معه في محنه وابتلاءاته، وكم أسعدته كثيرًا، وكم كانت له سكنًا ورحمة داخل البيت، فإنه إن كره منها خلقًا رضي منها آخر.

(فصل) فضل خديجة وعظيم قدرها عند رسول الله ﷺ ومحبته لها:

روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خير نسائهم مريم، وخير نسائها خديجة».

قال الحافظ: قال الطيبي: الضمير الأول يعود على الأمة التي كانت فيها مريم، والثاني على هذه الأمة[2].

ويؤيد ذلك ما رواه البزار والطبراني من حديث عمار بن ياسر رفعه، «لقد فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين»[3].

---

(١) «من أخطاء الأزواج» محمد إبراهيم الحمد، ص(١٠٥).

(٢) «الفتح» (٧/١٦٨).

(٣) حسن الحافظ إسناده في «الفتح».

وروى البخاري أيضًا عـن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجني لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها[1] منها ما يسعهن».

وروى أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب[2] لا صخب فيه ولا نصب»

قال الحافظ: قال السهيلي: النكتة في قوله: «من قصب» ولم يقل من لؤلؤ، أن في لفظ القصب مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها، ولذا وقعت هذه المناسبة في جميع ألفاظ هذا الحديث[3].

وقال النووي: في هذه الأحاديث دلالة لحسن العهد وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حيًا وميتًا، وإكرام معارف ذلك الصاحب[4].

٢ ـ النساء والغَيْرَة[5]:

فالغيرة طبع في النساء، ومنها ما هو مذموم، ومنها ما هو محمود.

فالمذموم منها تلك الغيرة التي تتأجج في صدر صاحبتها نارًا موقدة تشعل جيوش الظنون والشكوك، فتحيل حياة الأسرة جحيمًا لا يطاق.

---

(١) خلائلها: جمع خليلة، أي: صديقة.
(٢) قال ابن التين: المراد به لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف.
(٣) «الفتح» (٧/ ١٧١).
(٤) «فتح الباري» (٧/ ١٧٠، ١٧١).
(٥) «من أخطاء الزوجات» محمد بن إبراهيم الحمد، (ص: ٤٢، ٤٧).

والغيرة المعتدلة هي التي لا تتسلط على صاحبتها؛ فلا تثير عندها شكوكًا ولا أوهامًا، فهذه غيرة مقبولة، وقد تستملح أحيانًا.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: الغَيْرة بفتح المعجمة، وسكون التحتانية بعدها راء.

قال عياض وغيره: وهي مشتقة من تغير القلب، وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص، وأشد ما يكون بين الزوجين»[1].

وعقد الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه بابًا قال فيه: «باب غيرة النساء وَوَجْدهن».

وذكر تحت هذه الترجمة حديث عائشة ﵂ أنها قالت: «ما غرت على امرأة لرسول الله ﷺ كما غرت على خديجة؛ لكثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها، وثنائه عليها»[2].

قال ابن حجر ـ رحمه الله في شرح هذه الترجمة: «قوله: باب غيرة الناسء ووجدهن».

هذه الترجمة أخص من التي قبلها، ولم يَبُتَّ المصنف حكم الترجمة؛ لأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص.

وأصل الغيرة غير مكتسب للنساء، لكن إذا أفرطت في ذلك بقدر زائد تلام.

وضابط ذلك ما ورد في الحديث الآخر عن جابر بن عتيك الأنصاري رفعه: **«أن من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله، فأما الغيرة التي يحب الله فالغيرة في الريبة، وأما الغيرة التي يبغض فالغيرة في غير ريبة»**[3].

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٢٣١).

(٢) البخاري (٥٢٢٩).

(٣) رواه النسائي في «الكبرى» (٢٣٣٩)، وفي المجتبي (٢٥٥٨)، وأبو داود (٢٦٥٩)، والدارمي (٢٢٢٦)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٥) و(٤٧٦٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٠٥).

وهذا التفصيل يتمحض في حق الرجل؛ لضرورة امتناع اجتماع زوجين للمرأة بطريق الحل.

وأما المرأة فحيث غارت من زوجها في ارتكاب محرم، إما بالزنا مثلاً، وإما بنقص حقها، وجوره عليها لضرتها، وإيثارها، فإذا تحققت ذلك أو ظهرت القرائن - فهي غيرة مشروعة؛ فلو وقع ذلك بمجرد التوهم من غير دليل فهي الغيرة في غير ريبة.

وأما إذا كان الزوج مقسطًا عادلاً، وأدى لكل من الضرتين حقها فالغيرة منهما إن كانت لما في الطباع البشرية التي لم يسلم منها أحد من النساء - فتُعذر فيها، ما لم تتجاوز إلى ما يحرم عليها من قول أو فعل.

وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف الصالح من النساء في ذلك[1].

فالغيرة - إذًا - ليست شرًا دائمًا، وإنما الشر فيما كان مبالغًا فيه من الغيرة، فغيرة المرأة على الرجل هي - في الحقيقة - إحساس صادق لمدى حبها له، وهي في الوقت نفسه صورة معبرة عن حرصها على الاستئثار به، وهي كذلك حالة نفسية تعبر عن خوف المرأة على مستقبلها في الحياة؛ فهذا المزيج من الحب الخالص، والأثرة المفرطة، والخوف الزائد - يصنع في المرأة عاطفة الغيرة.

إن شعور المرأة بحبها لزوجها قد يدفعها إلى إسعاده، وتهيئة الجو المناسب لتحقيق آماله.

غير أن إحساسها بحبها لنفسها، وخوفها على مستقبلها في الحياة قد يقودها إلى فرض القيود على زوجها الذي أحبته؛ مؤملة بذلك أن يكون خيره كله لها، ولأولادها.

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٣٧).

وقد تزيد الغيرة عن هذا الحد، فتودي بالمرأة إلى تصرفات غريبة شائنة بدايتها الشك في الزوج، وتفسير تصرفاته على غير وجهها؛ فتشك فيه إذا التفت فرأى امرأة تسير، وتشك فيه إذا رفع سماعة الهاتف فخفض صوته، وتشك فيه إذا غاب لسفر أو نحوه، وتشك فيه إذا تشاغل عنها في بعض الأحيان.

كل ذلك مع أن الزوج لم تظهر عليه علائم الفساد، ولا الجناح إلى الشر.

وقد تزيد في مطالبها لزوجها، فتستنزف ماله قدر المستطاع؛ كيلا يذهب شيء منه إلى أمه أو أخواته، أو لأجل أن لا يبقى عنده فضل مال يتزوج به زوجة أخرى.

ثم بعد ذلك تبدأ آلامها؛ لانتفاع غيرها بزوجها، ثم تنتقل إلى اتهام أهل زوجها، وإلى إثارة المنازعات، وتدبير المكائد، وربما تلجأ إلى السحر عياذاً بالله إلى غير ذلك من التصرفات الطائشة الشائنة.

إن نيران الغيرة تلتهب بوقود خاص، وهذا الوقود قد يكون نقيًا نظيفًا، فتمنحنا نيرانه النور، والدفء، والأمل.

وقد يكون قذرًا لا ينبعث من نيرانه غير دخان يزكم الأنوف، ويعمي الأبصار.

ومن أسباب ذلك الوقود القذر ضعفُ التربية الدينية والخلقية، وهذا ما يثير أطماعها، ويحيي أحقادها[1].

ومن أسباب ذلك جهلها بالعواقب.

ومن أسباب ذلك أيضًا حماقة الرجل، وسوء تصرفاته.

ولهذا يجب على الزوجة التي تروم السعادة لنفسها ولزوجها أن تعتدل في غيرتها، ومما يعينها على ذلك ما يلي:

---

(١) انظر: «تعدد الزوجات» د/ عبد الناصر العطار، (ص: ٥١-٥٤)، وعودة الحجاب (٢/ ٥٥٠، ٥٥١).

(أ) أن ترضي بقضاء الله وقدره: فما أصابها لم يكن ليخطئها، وما أخطأها لم يكن ليصيبها، وما كتب عليها لابد أن يأتيها.

(ب) ترك الاسترسال مع الأوهام: التي تنسجها الأذهان الحائرة المبلبلة.

(جـ) الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم: قال تعالى: ﴿وإمَّا ينزَغَنَّكَ من الشَّيْطَان نَزْغٌ فاسْتعذْ بِالله إنَّهُ سميعٌ عليمٌ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠٠).

(د) تحكيم العقل وترك الانسياق وراء العاطفة.

(هـ) المجاهدة: فتجاهد نفسها على التخلص من هذه الأوهام، ﴿والَّذين جَاهَدُوا فِينا لنهْدِينَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللهَ لمعَ المُحْسنين﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩).

(و) الدعاء: فتسأل ربها أن يعينها على نفسها، وأن يجنبها كل ما يُزري بها.

(ز) النظر في العواقب: فما عاقبة سوء الظن، والمبالغة في الغيرة إلا خراب البيت، وزوال النعمة؛ فهل ترضى العاقلة بهذا المنقلب؟

(حـ) الاشتغال بما ينفع: من نحو الإقبال على الله، والقيام بشأن المنزل؛ لأن الفراغ يولد كثيراً من المشكلات.

(ط) تغليب جانب التفاؤل: فالمتفائل واسع النظرة، فسيح الصدر، عالي الهمة، موفور النشاط.

بخلاف المتشائم؛ فهو فاتر الهمة، ثقيل الظل، متبلد كسول، لا تحدوه غاية حميدة، ولا يدفعه هدفٌ سامٍ.

بل تراه يعيش في عالم الأحلام، والأوهام والخيال، ويشعر دائمًا بالخيبة والخذلان، ويسيء ظنه بالآخرين، ولا ينظر إليهم إلا بعين الريبة؛ فهو مغلق النفس، ضيق الصدر[1].

---

(١) انظر: «تكوين الشخصية» د/ لوزي الحافظ (ص: ١١٤-١١٦).

ألا إنما بشر الحياة تفاؤل ▫▪▫ تفاءل تعش في زمرة السعداء

(ي) **ترك التوقع للشر:** فمن الحكمة أن لا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر والألم بحصول الشر؛ فليسعدها ما دامت أسباب الحزن بعيدة، فإذا حدثت فليقابلها بشجاعة واعتدال.

قال أبو علي الشبل:

ودع التوقع للحوادث إنها ▫▪▫ للحي من قبل الممات ممات[1]

وكلمة هادئة إلى الزوجة الأولى: أن اتق الله تعالى في نفسك وفي زوجك ما دام مقسطًا عادلاً، ولا تتعللي بسوء سلوكك أو سوء تصرفك معه بأن الغيرة معفو عنها لأنه قد تزوج عليك، فالأمر ليس على الإطلاق كما تظنين.

وما فائدة النكد والهم والمشكلات التي تريدين أن تحيطي زوجك بها، متعللة في ذلك بأن زوجات النبي ﷺ كن يغرن وكان يحدث منهن كذا وكذا؟!

ولعلك لو كنت تسلكين طريق أمهات المؤمنين، ما كان هذا هو حالك وسلوكك.

إن ما أُثر على أمهات المؤمنين في أمر الغيرة بسيط لا يقارن بما تفعله الواحدة منكن مع زوجها إن تزوج عليها.

فضلاً عن أن أمهات المؤمنين كن تقيات، يعرفن للزوج حقه وقدره، أوَّابات للحق، ولم يؤثر عن الواحدة منهن، مثل هذه المشكلات ـ كمًا أوكيفًا ـ مما نراه من بعضكن مع أزواجهن.

قد تكون المرأة معذورة عندما يأتي زوجها من الأقوال أو الأفعال ما يؤجج نار الغيرة في قلب زوجته، لكن ما عذر المرأة إن كان زوجها يتقي الله تعالى فيها حق

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي ـ رحمه الله ـ.

تقاته، ويبتعد عن كل قول أو فعل يشعل نار الغيرة في قلب زوجته، لماذا لا تحافظ على النعمة التي بين يديها قبل أن تضيع منها، وقبل أن تندم؟

إن زوجات النبي ﷺ كن يعشن في مكان واحد، وكن يتقابلن ويتزاورن، فحدث بينهن ما حدث مما جاء في الأحاديث مما لا تزيد تقريبًا عن عشرة أحاديث، لكن ما عذرك إن كنت في مسكن وهي في آخر، أو أنت في بلدة وهي في بلدة أخرى، وسلوك الزوج معكما حكيم فلا يأتي من الأفعال ما يشعل نار الغيرة بينكما؟!

وأتعجب كل العجب من تلك المرأة التي ساءها زواج زوجها عليها، فهي تحاول بكل طريقة الإساءة إليه أو إقناع نفسها بأنه يسيء معاملتها ويجرح مشاعرها ولا يراعي نفسيتها، وفي النهاية نجد أن كل ذلك سببه وساوس شياطين الإنس والجن. فهذه تريد أن تعاقبه فتهجر فراشه وتهرب إلى غرفة الأولاد، ولا تهتم بما ينتج عن ذلك من أمراض نفسية سيئة للأولاد.

وأخرى تصر وتلح أن يتنازل زوجها عن حقوقه لديها في مقابل أن تتنازل هي الأخرى عن حقوقها من النفقة وغيرها، ثم يعيشان في البيت كالغريبين وكل ذلك أمام أنظار الأولاد، وهي لا تبالي بمدى الجريمة التي ترتكبها في حق نفسها، وفي حق زوجها، وفي حق أولادها.

فيا أيتها الزوجة الأولى . . الحكمة والتعقل والخوف من الله عند وزن الأمور والتعامل مع الأحداث[1].



(١) تراجع «موقف المرأة الصالحة من تعدد الزوجات» للمؤلف.

الحديث الثالث

في الرحمة والرأفة وحسن المعاشرة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل الحبشة المسجد يلعبون، فقال لي النبي ﷺ: «يا حميراء[1]، أتحبين أن تنظري إليهم؟»، فقلت: نعم، فقام بالباب، وجئته فوضعت ذقني على عاتقه، فأسندت وجهي إلى خده، قالت: ومن قولهم يومئذ: أبا القاسم طيباً، فقال رسول الله ﷺ: «حسبك»، فقلت: يا رسول الله لا تعجل، فقام لي، ثم قال: «حسبك»، فقلت: لا تعجل يا رسول الله، وقالت: وما لي حبُّ النظر إليهم، ولكن أحببت أن يبلغ النساء مقامُه لي، ومكاني منه[2].

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية» (١/٤٣٨): الحميراء: تصغير الحمراء، يريد البيضاء.
وقال الذهبي في «السير» (٢/١٦٨): الحمراء في لسان أهل الحجاز: هي البيضاء بشُقرة، وهذا نادر فيهم.

(٢) رواه النسائي في «عشرة النساء» (٦٥)، وصححه الحافظ في «الفتح»، والألباني في «آداب الزفاف» (ص: ١٦١).

الدروس المستفادة:

١ - *في الحديث بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من الرأفة والرحمة وحسن الخلق، والرفق بالزوجة واستجلاب مودتها، وكل ذلك من حسن معاشرة الأهل والأزواج:*

فقد أخرج الإمام أحمد(١) بسند صحيح عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم، ولم أبدن، فقال للناس: «تقدموا»، فتقدموا، ثم قال لي: «تعالي حتى أسابقك» فسابقته فسبقته، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدموا»، فتقدموا، ثم قال: «تعالي حتى أسابقك» فسابقته فسبقني، فجعل يضحك وهو يقول: «هذه بتلك».

ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم(٢) من حديث أنس رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ على بعض نسائه ومعهن أم سليم، فقال: «**ويحك يا أنجشة رويدك سوقًا بالقوارير**».

وتأتيه زوجته وهو معتكف، فيجلس معها يحدثها في معتكفه ساعة، ثم يقوم معها يردها إلى قريب من بيتها(٣).

ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم(٤) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن منه فيُسربهن إليَّ فيلعبن معي.

---

(١) أحمد في «المسند» (٦/ ٢٦٤).

(٢) البخاري في «الفتح» (١٠/ ٥٣٨)، ومسلم (٥/ ١٧٧)
شبه الرسول ﷺ النساء بالقوارير، وأمر أنجشة أن يتلطف في إنشاده وهو يحدو للإبل، فإن الإبل إذا سمعت صوت الحادي أسرعت، فخشي على النساء من سرعتها.

(٣) أخرج البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (١٧١٢) من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها أم المؤمنين أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ معها يقلبها... الحديث

(٤) أخرجه البخاري في «الفتح» (١٠/ ٥٢٦)، ومسلم في «النووي» (٥/ ٢٩٥).

فها هي أم المؤمنين عائشة وقد تزوجها رسول الله ﷺ وهي بنت ست سنين، وبنى بها وهي بنت تسع سنين، ومكث معها تسع سنين تلعب مع زميلاتها وصويحباتها بالبنات - وهي الصور التي كانت تصنع من العهن أو من القطن على هيئة بنات - فيدخل النبي ﷺ فتختفي صويحباتها فيرسلهن رسول الله ﷺ إلى عائشة رضي الله عنها يلعبن معها، فأي حلم بعد هذا مع الزوجة!!!

ويحبس[1] النبي ﷺ - أي: يؤخر الجيش - للبحث عن قلادة أسماء التي فقدت من عائشة رضي الله تعالى عنها في السفر[2].

وفي «صحيح البخاري»[3] أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سئلت: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

وروى أبو داود[4] بإسناد حسن لغيره من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «... **ليس من اللهو إلا ثلاث: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله**».

وقد حث رسول الله ﷺ على ملاعبة الأهل ومداعبتها، فأخرج البخاري في «صحيحه» ومسلم[5] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «... **اتزوجت؟**» قلت: نعم، قال: «**ابكرًا أم ثيبًا؟**» قال: قلت: بل ثيبًا، قال: «**فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك؟**»، **قال: فلما قدمنا ذهبنا لندخل فقال: «أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً - أي: عشاءً - لكي تمتشط الشَعْثة، وتستحد المُغِيبة»**.

(١) ومحل هذا إذا لم يكن فيه مشقة على عموم المسلمين.

(٢) أخرج البخاري (٣٣٤)، ومسلم (٣٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء - أو بذات الجيش - انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام معه الناس وليسوا على ماء... الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في «الفتح» (٢/ ١٦٢).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥١٣)، وللحديث شواهد في كتاب «جامع أحكام النساء» (أبواب الأدب...) للشيخ مصطفى العدوي - حفظه الله -.

(٥) أخرجه البخاري (٥٢٤٧)، ومسلم (٧١٥) من عدة وجوه.

ويدعوه رجل إلى وليمة فيشترط[(١)] على الرجل أن يصطحب أهله معه، فقد أخرج مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن جاراً لرسول الله ﷺ فارسيًا كان طيب المرق فصنع لرسول الله ﷺ ثم جاء يدعوه فقال: «وهذه؟» لعائشة. فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «لا»، فعاد يدعوه فقال رسول الله ﷺ: «وهذه؟» قال: لا، قال رسول الله ﷺ: «لا»، ثم عاد يدعوه فقال رسول الله ﷺ: «وهذه؟» قال: نعم في الثالثة، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله[(٢)].

ويجلس ﷺ مستمعًا إلى أم المؤمنين عائشة وهي تقص عليه حديث النسوة اللاتي جلسن وتعاقدن على أن لا يكتمن من خبر أزواجهن شيئًا ألا وهو حديث أم زرع، وهو حديث طويل ومع ذلك لا يمل رسول الله ﷺ من عائشة وهي تقُصُّه عليه، والحديث قد أخرجه البخاري ومسلم[(٣)].

٢ - مشروعية التوسعة على العيال في أيام الأعياد - بصفة خاصة - بأنواع ما يحصل لهم به بسط النفس وترويح البدن، وذلك ضمن ما أحله الله وأباحه، حيث إن الواقعة المذكورة كانت في يوم العيد.

وهذه التوسعة تكون بمزيد من الإنفاق، أو الرحلة هنا أو هناك بما يدخل على النفس السرور، ويزيل عنها ملل الحياة اليومي، لذلك فقد رَغَّب رسول الله ﷺ في الإنفاق على الأهل والأولاد، فمن ذلك:

ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«دينار انفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»**.

---

(١) وليس هذا في كل الأحوال.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٠٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ١٦٣) (٥١٨٩)، ومسلم (١٥/ ٢١٢) (٢٤٤٨)، وسيأتي في آخر هذا الكتاب - إن شاء الله - (الحديث الحادي عشر).

وروى البخاري ومسلم عن أبي مسعود البدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة**».

وقال تعالى: ﴿ **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا** ﴾ (سورة الطلاق.٧).

وإذا كان الإسلام قد شرع التوسعة على الأهل والعيال بمزيد من الإنفاق في المطعم والمشرب والملبس والسفر هنا أو هناك، فإن ذلك لابد أن يقيد بالضوابط الشرعية.

فلا يسرف ولا يضيع وقتًا في ذلك، فإن الإكثار من المباحات بلا ضوابط ليس محمودًا، وكذلك إذا أراد الرجل أن يسافر بأهله للاستجمام مثلاً على شواطيء البحار أو النزهة فليتجنب الاختلاط وكشف العورات وارتياد الأماكن التي يعصى فيها الله ورسوله ﷺ[1].

٣ ـ *فضل عائشة وعظيم قدرها عند النبي ﷺ ومحبته لها:*

ولذلك لما سُئل ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: «**عائشة**»[2].

وعنها ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا: «**يا عائش هذا جبريل يُقرئك السلام**» فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى. أريد رسول الله ﷺ.

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام**»

---

(١) وسيأتي الحديث عن اللهو والترويح في شرح الحديث السابع.

(٢) رواه البخاري (١٨١٧) فتح الباري، ومسلم (٢٣٨٤).

وقال ﷺ لأم سلمة: **«يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها»**[١].

(وقال عنها الزهري: لو جمع علم عائشة إلى جميع علم أزواج رسول الله ﷺ وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل.

وذكر ابن سعد عن محمد بن لبيد قال: كان أزواج النبي ﷺ يحفظن من حديث النبي ﷺ كثيرًا ولا مثلاً لعائشة وأم سلمة، وكانت عائشة تفتي في عهد عمر وعثمان إلى أن ماتت يرحمها الله، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ عمر وعثمان بعده يرسلان إليها فيسألانها عن السنن.

وبشرها رسول الله ﷺ بالجنة عندما سألته: من أزواجك في الجنة؟ قال: **«أنت منهن»**.

أما عروة بن الزبير ابن أختها فقد قال: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطبٍ ولا بشعر من عائشة، وما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا)[٢].

وقد رأى النبي ﷺ صورتها في منامه، وقال له الملك جبريل عليه السلام: إنها ستكون زوجته، فعن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ: **«أريتك في المنام ثلاث ليال، جاء بك الملك في سرقة - قطعة - من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك، فإذا أنتِ فيه فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه»**[٣].

وقال ﷺ وهو يظهر فضل عائشة ويمدحها: **«فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**[٤].

---

(١) هذه الأحاديث رواها البخاري في صحيحه «باب فضل عائشة» الفتح (٧/ ١٣٣).

(٢) موسوعة أمهات المؤمنين، للدكتور/ عبد الصبور شاهين، والدكتورة/ إصلاح الرفاعي (ص: ١٠٠-١١٢).

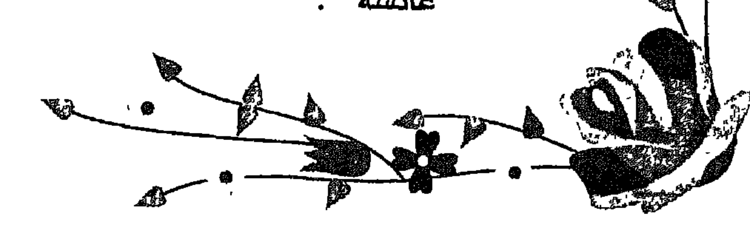
(٣) رواه البخاري (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥/ ٣٦)، ومسلم (٢٤٤٦).

الحديث الرابع

في الحلم والإنصاف وحسن الخلق

عن أم سلمة أنها أتت بطعام في صحفة لها إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متزرة ومعها فِهْر ـ حجر ناعم صلب ـ ففلقت به الصحفة، فجمع النبي ﷺ بين فَلْقتي الصحفة، ويقول: «كلوا، غارت أمكم» مرتين، ثم أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحفة أم سلمة عائشة[(١)].



❤ الدروس المستفادة:

١ ـ *حسن خلق النبي ﷺ وإنصافه وحلمه وحسن تصرفه:*

(وصف الله رسوله محمداً صلوات الله عليه بأنه على خلق عظيم، ووجه له الوصف على سبيل الخطاب الذي يمدحه ويثني عليه فيه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة لقلم:٤)، فهذا النص القرآني يثبت أن محمداً ﷺ لعلى خلق عظيم، أي: فهو متمكن من أخلاقه العظيمة المثلى، قابض على ناصيتها، وقد دلّ على هذا المعنى الاستعلاء الذي دلّ عليه حرف ﴿عَلَىٰ﴾ في ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ١٢٤)، والنسائي (٧/ ٧٠) واللفظ له.

وبدراسة شمائل الرسول صلوات الله عليه، تُعرف مكارم الأخلاق معرفة تطبيقية عملية، ثم تكون لدى العقلاء الحكماء أمثلة للاقتداء بها، واتباع خطواتها.

وبدراسة شمائله تتهيأ أمام الناس القدوة الحسنة ذات الصفات الخلقية العظيمة، والتي تجذبهم إلى محبتها والاقتداء بها)[١].

ومن صور حسن خلق النبي ﷺ وحلمه وحسن تصرفه، ما رواه الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: «جاء أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على النبي ﷺ، فسمع عائشة وهي رافعة صوتها على رسول الله ﷺ، فأذن له، فدخل، فقال: **«يا ابنة أم رومان!! وتناولها، أترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟!»**، قال: فحال النبي ﷺ بينه وبينها، قال: فلما خرج أبو بكر جعل النبي ﷺ يقول لها ـ يسترضيها ـ: **«ألا ترين أني حلْتُ بين الرجل وبينك»** قال: ثم جاء أبو بكر فاستأذن عليه فوجده يضاحكها، قال: فأذن له، فدخل، فقال له أبو بكر: **«يا رسول الله، أشركاني في سِلْمِكُما كما أشركتماني في حربكما»**[٢].

فلننظر كيف عامل رسول الله ﷺ أهله بالحسنى، مع أن عائشة رضي الله عنها أخطأت برفع صوتها عليه ﷺ، فضلاً أنه كان هو البادىء بالإصلاح، وهكذا فليكن الأزواج: حلم مع صبر، وحسن خلق مع حكمة، وإحسان مع عفو، وإلا فكيف تسير سفينة الحياة الزوجية؟!

(١) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» عبد الرحمن حسن الميداني (١/ ٤٣٥-٤٣٦) باختصار.

(٢) سيأتي هذا الحديث بشرحه وفوائده بعد حديث الباب مباشرة.

٢ - بعض ما يكون بين الضرائر[(١)(٢)]:

■ الغيرة:

قال الإمام البخاري - رحمه الله - (٥٢٢٩): حدثني أحمد بن أبي رجاء حدثنا النضر عن هشام قال: أخبرني أبي عن عائشة أنها قالت: ما غرت على امرأة لرسول الله ﷺ كما غرت على خديجة لكثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها وثنائه عليها، وقد أُوحي إلى رسول الله ﷺ أن يبشرها ببيت لها في الجنة من قصب. (صحيح).

قال النسائي - رحمه الله - (٧/ ٧٠): أخبرنا الربيع بن سليمان قال: حدثنا أسد بن موسى قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي المتوكل[(٣)] عن أم سلمة أنها يعني أتت بطعام في صحفة لها إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متزرة بكساء ومعها فهر[(٤)] ففلقت به الصحفة، فجمع النبي ﷺ بين فلقتي الصحفة

---

(١) وقالت أم رومان - أم عائشة ﵂ - لعائشة: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.

- (وذلك في حديث الإفك الطويل عند البخاري ٤٧٥٠).

- ولكن هذا الإكثار وإن كان واردًا إلا أنه لا يجوز أن يتجاوز به إلى حد الافتراء والبهتان والطعن، كما فعلت حمنة بنت جحش إذ انتصرت لأختها زينب ﵂ ففي الصحيح في حديث الإفك: قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرًا، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.

(٢) «أحكام النساء» للشيخ مصطفى العدوي (٣/ ٥٢٩-٥٣٢).

(٣) قال الحافظ في الفتح» (٥/ ١٢٥): وقد اختلف في هذا الحديث على ثابت فقيل عنه عن أنس، ورجح أبو زرعة الرازي فيما حكاه ابن أبي حاتم في العلل عنه رواية حماد بن سلمة، وقال: إن غيرها خطأ.

- قلت: قال أبو زرعة كما في العلل (١/ ٣٦٦): رواه حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي المتوكل أن النبي ﷺ . . . وهذا الصحيح.

(٤) فهر: أي حجر.

ويقول: «كلوا، غارت أمكم» مرتين، ثم أخذ رسـول الله ﷺ صحفة عائشـة فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحفة أم سلمة عائشة. (صحيح).

قال الحـافظ أبو يعلي الموصلي ـ رحـمه الله ـ (المسند ٧/ ٤٤٩): حـدثنا إبراهيم حدثنا حمـاد عن محمد بن عمـرو عن يحيى بن عبد الرحمن ابن حـاطب أن عائشة قالت: أتيت النبي ﷺ بخـزيرة قد طبخـتُها له فقـلت لسودة ـ والنبي ﷺ بيني وبينها ـ: كلي. فأبت، فقلت: لتأكـلن أو لألطخن وجهك، فأبت فوضعت يدي في الخزيرة فطليت وجـهها، ، فضـحك النبي ﷺ فوضع بيده لها وقـال لها: «الطخي وجهها» فضحك الـنبي ﷺ فمر عمر فـقال؟: يا عبد الله يا عـبد الله، فظن أنه سيدخل[1] فقال: قوما فاغـسلا وجوهكما، فقالت عائشة: فمازلت أهـاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ (إسناده صحيح).

وأخرجه أبو بكر القطيعي في زياداته على فضائل الصحابة على ما أورده عن عبد الله بن أحمد (٥٠٤).

قال الإمـام مسلم ـ رحمـه الله ـ (٢٤٤٥): حدثنا إسحـاق بن إبراهيم الحنظلي وحدثنا عبـد بن حميد كـلاهما عن أبي نعيم قال عـبد: حدثنا أبو نعيم حـدثنا عبد الواحد بن أيمن حدثني ابن أبي مليـكة عن القاسم بن محمد عن عائشـة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خـرج أقرع بين نسـائه، فطارت القرعـة على عائشـة وحفـصة فخرجتا مـعه جميعًا، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سـار مع عائشة يتحدث معها[2]، فقـالت حفصة لعـائشة: ألا تركبين الليلة بعـيري وأركب بعيـرك فتنظرين وأنظر؟ قالت: بلى. فـركبت عائشة على بعـير حفصـة، وركبت حفصة علـى بعير

---

(١) هذا محمول على أنه قبل الحجاب.

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٩/ ٣١١): استـدل به المهلب على أن القسم لم يكن واجبًا على النبي ﷺ ولا دلالة فيه؛ لأن عماد القسم الليل في الحضر، وأما في السـفر فعماد القسم فيه النزول، وأما حالة المسير فليست منه لا ليلاً ولا نهارًا.

عائشة، فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة فسلم ثم سار معها حتى نزلوا، فافتقدته عائشة فغارت، فلمَّا نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخر وتقول: يا رب سلِّط عليَّ عقربًا أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئًا. (صحيح)، وأخرجه البخاري (٥٢١١)، والنسائي في «عشرة النساء» (٤٦).

■ كراهية تشبع المرأة على ضرتها بما لم تعط:

حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن هشام عن فاطمة عن أسماء عن النبي ﷺ، حدثني محمد بن المثنى حدثنا يحيى عن هشام حدثتني فاطمة عن أسماء أن امرأة قالت: يا رسول الله إن لي ضُرَّة فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني[١]؟، فقال رسول الله ﷺ: **«المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»**[٢]. (صحيح).

وأخرجه مسلم (٢١٢٩)، وأبو داود (٤٩٩٧)، والنسائي في «عشرة النساء» (٣٥).

---

(١) في رواية لمسلم: أقول: إن زوجي أعطاني ما لم يعطني؟ وفي أخرى عنده أيضًا: فهل عليَّ جناح أن أتشبع من مال زوجي بما لم يعطني؟.

(٢) نقل الحافظ في «الفتح» (٩/ ٣١٧) عن أبي عبيد قوله: «المتشبع» أي: المتزين بما ليس عنده يتكثر بذلك ويتزين بالباطل، كالمرأة تكون عند الرجل ولها ضرة فتدعي من الحظوة عند زوجها أكثر مما عنده تريد بذلك غيظ ضرتها، وكذلك هذا في الرجال. قال: وأما قوله: «كلابس ثوبي زور» فإنه الرجل يلبس الثياب المشبهة لثياب الزهاد يوهم أنه منهم ويظهر من التخشع والتقشف أكثر مما في قلبه منه. وأورد ـ رحمه الله ـ أقوالاً أخر في معناه.

ـ وقال النووي ـ رحمه الله ـ (٤/ ٨٤١): قال العلماء: معناه المتكثر بما ليس عنده بأن يظهر أن عنده ما ليس عنده يتكثر بذلك عند الناس ويتزين بالباطل، فهو مذموم كما يذم من لبس ثوبي زور.

ـ ونقل الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ عن ابن التين قوله: هو أن يلبس ثوبي وديعة أو عارية يظن الناس أنهما له ولباسهما لا يدوم ويفتضح بكذبه، وأراد بذلك تنفير المرأة عما ذكرت خوفًا من الفساد بين زوجها وضرتها ويورث بينهما البغضاء؛ فيصير كالسحر الذي يفرِّق بين المرء وزوجه.

■ما يجوز من افتخار المرأة على ضرتها:

قال الإمام البخاري - رحمه الله - (٧٤٢٠): حدثنا أحمد حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ﷺ يقول: «**اتق الله وامسك عليك زوجك**». قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوَّجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات. (صحيح).

٣ - التجاوز عن الأخطاء في الحياة الزوجية:

(فمن الأزواج من يكثر لوم زوجته وانتقادها عند كل صغيرة وكبيرة، فتراه ينتقد الطعام الذي تعده الزوجة، وتراه يعاتبها إذا بكى الصغار أو كثر عبثهم، وتراه يبالغ في تأنيبها إذا نسيت أو قصَّرت في شأن من شئونه.

وأقبح ما في ذلك أن يعنفها فيما لا قدرة لها عليه، كأن يلومها إذا كانت لا تنجب، أو إذا كانت لا تنجب إلا بنين فحسب، أو بنات فحسب، أو يلومها إذا أنجبت ولدًا مشوهًا، أو فيه بعض العيوب الخِلْقية، فيجمع بذلك بين ألمها في نفسها وبين إساءته البالغة بقوارصه التي تقض مضجعها، وتؤرق جفنها.

وما هذا بمسلك العقلاء؛ ذلك أن كثرة اللوم لا تصدر من ذي خلق كريم أو طبع سليم؛ ثم إن ذلك يورث النفرة، ويوجب الرهبة.

فَدَعِ العتابَ فربَّ شرٍّ ▪▪ هاج أوله العتاب[1]

فالزوج العاقل كريم لا يعاتب زوجته عند أدنى هفوة، ولا يؤاخذها بأول زلة.

بل يلتمس لها المعاذير، ويحملها على أحسن المحامل.

(١) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٣/ ٢٩).

وإن كان هناك ما يستوجب العتاب عاتبها عتابًا لينًا رقيقًا تدرك به خطأها دون أن يهدر كرامتها أو ينسى جميلها.

ثم ما أحسن أن يتغاضى المرء ويتغافل؛ فذلك من دلائل سمو النفس وشفافيتها وأريحيتها، كما أنه مما يعلي المنزلة، ويريح من الغضب وآثاره المدمرة.

وإن أتت المرأة ما يوجب العتاب فلا يحسن بالزوج أن يكرر العتاب، وينكأ الجراح مرة بعد مرة؛ لأن ذلك يفضي إلى البغضة، وقد لا يبقى للمودة عينًا ولا أثرًا.

ومما يعين الزوج على سلوك طريق الاعتدال في عتاب الزوجة، أن يوطن نفسه على أنه لا يجد من زوجته كل ما يريد كما أنها لن تجد فيه كل ما تريد؛ فلا يحسن به - والحالة هذه - أن يعاتب في كل الأمور، وأن يتعقب كل صغيرة وكبيرة؛ فأي الرجال المهذب؟ ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟

ثم إن الإنسان لا يستطيع أن يتخلص من كثير من عيوبه؛ فعلامَ نُحمِّل الآخرين فوق ما يطيقون ونحن عن تلافي كثير من عيوبنا عاجزون؟

ولا يعني ما مضى أن يتساهل الزوج في تفصير الزوجة في الأمور المهمة من نحو القيام بالواجبات الدينية، أو رعاية الآداب المرعية، أو التزام ما تقضي به الصيانة والعفة؛ فهذه أمور يجب أن توضع على رأس الأشياء التي لا يقبل التنازل عنها بحال[1].

قال النبي ﷺ: «استوصوا بالنساء؛ فإن المرأة خلقت من ضلَع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه»[2].

---

(١) انظر: «نظرات في الأسرة المسلمة» (ص: ٧٢، ٨٩).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

فالحديث الشريف يعلم الرجل كيف يسلك في سياسة الزوجة طريق الرفق والأناة؛ فلا يشتد ويبالغ في ردها عن بعض آرائها التي بها عوج؛ فإن ذلك قد يفضي إلى الفراق.

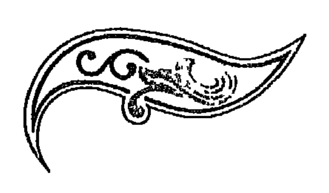
كما أنه لا يتركها وشأنها، فإن الإغضاء عن العوج مدعاة لاستمراره أو تزايده.

والعوج المستمر أو المتزايد قد يكون شؤمًا على المعاشرة، فتصير إلى عاقبة مكروهة[١].

وبعد ذلك فقد يقع من الزوج شدة في العتاب، أو إسراف في اللوم؛ فيحسن به إذا وقع منه ذلك أن يبادر إلى الاعتذار، أو الهدية، وإظهار الأسف، والاعتراف بالخطأ دون أن تأخذه العزة بالإثم؛ فما هو إلا بشر، وما كان لبشر أن يدعي أنه لم يقل إلا صوابًا.

فإذا أخذ الزوج بهذه الطريقة قلَّ عتابه، وأراح نفسه، وسما بخُلُقِه.

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «من لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه، وترك التوقع لما يأتون من المحبوب كان إلى تكدير عيشه أقرب منه إلى صفاته، وإلى أن يدفعه الوقت إلى العداوة والبغضاء أقرب منه أن ينال منهم الوداد وترك الشحناء»[٢].



(١) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص:٥٧).

(٢) «من أخطاء الأزواج» محمد بن إبراهيم الحمد (ص:٣٧ـ٤٠).

الحديث الخامس

في المحبة والألفة بين الزوجين

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليَّ غَضْبَى»، قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبي قلت: لا ورب إبراهيم»، قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك[1].

♥ الدروس المستفادة:

١ - *أهمية العناية بالمشاعر بين الزوجين:*

إن من أسباب السعادة الزوجية داخل البيت المسلم، ومن أسس توطيد العلاقة الزوجية والسير بها في الدروب الآمنة، معرفة كل من الزوجين بأخلاق الآخر وطباعه، ما يغضبه فلا يأتيه، وما يرضيه فيأتيه، بما يجنب الأسرة مسالك العسر ومواضع النكد والزلل والتعاسة والمشكلات.

وقد بلغ من دقة عناية الرسول ﷺ بمشاعر عائشة رضي الله عنها حتى صار يعلم رضاها وغضبها من مجرد كلامها وحلفها في هذا الحديث.

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٢٣٧، ١٠/ ٤٩٧)، ومسلم (٢٤٣٩).

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قوله: **«إني لأعلم إذا كنت عني راضية»**... إلخ، يؤخذ منه استقراء الرجل حال المرأة من فعلها وقولها فيما يتعلق بالميل إليه وعدمه، والحكم بما تقتضيه القرائن في ذلك؛ لأنه ﷺ جزم برضا عائشة وغضبها بمجرد ذكرها لاسمه وسكوتها، بنى على تغير الحالتين من الذكر والسكوت تغير الحالتين من الرضا والغضب، ويحتمل أن يكون انضم إلى ذلك شيء آخر أصرح منه لكنه لم ينقل»[1].

ومما يبين لنا أيضًا أهمية مراعاة الزوجة لمشاعر زوجها، حديث أسماء بنت أبي بكر زوج الزبير رضي الله عنه، أنها كانت تذهب إلى أرض الزبير التي كانت تبعد عن بيتها ثلثي فرسخ تأتي بالنوى للفرس وتدقه له، ففي إحدى المرات عند عودتها قابلت النبي ﷺ وهو يركب دابته ومعه نفر من أصحابه، فأناخ النبي ﷺ البعير ودعا أسماء للركوب خلفه، قالت أسماء: فاستحييت وذكرت الزبير وغَيرته، فلمَّا علم النبي ﷺ أنها استحيت مضى.

فلما عادت إلى البيت قصت على الزبير ما حدث، فقال لها: **«لمشيك أشد علي من ركوبك خلفه»**[2].

فنجد هذه المرأة الصالحة لعلمها بشدة غيرة زوجها، تراعي مشاعره، وفي هذا درس بليغ لكل مسلمة ترجو الله والدار الآخرة، وهو أن المرأة إذا علمت أن زوجها يتكدر من صفة ما، أو تصرف ما، لا يحل لها أن تخالفه وتأتي بما يكدر مزاجه ويحزنه، وهذا ليس من الوفاء، لاسيما وأنه مفتاح الجنة بالنسبة للمرأة، أو أحد مفاتيحها للحديث الصحيح الذي قال فيه الرسول ﷺ لأسماء بنت زيد: **«انظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك»**[3].

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٣٧).

(٢) الحديث بتمامه في البخاري (٩/ ٢٨١) الفتح، ومسلم (٢١٨٢).

(٣) رواه أحمد والنسائي، وقال الألباني ـ رحمه الله ـ: إسناده صحيح «آداب الزفاف» (ص: ٢٨٥).

فمكانة الزوج عظيمة جدًا، ومراعاة مشاعره في الغضب والفرح، أمر بدهي لكل مؤمنة عينها على الجنة.

٢ ـ الأدب عنوان الهجر بين الزوجين:

إن الحياة الزوجية ليست بين ملَكين لا يخطئان، وإنما بين بشرين يصيبان ويخطئان؛ لذا فإنه لابد أن يكون بين كل من الزوجين وقفات، وسوء تفاهم ونحو ذلك من المشكلات التي تحدث داخل البيوت، ولكن يجب ألا ننسى خلق الأدب عند حدوث أية مشكلة أو هجر بين الزوجين، وهذا معناه ألا يكون الهجر مجحفًا ويمتد لمدة طويلة بلا سبب شرعي، بل بالقدر المشروع، ولا يتناول أحدهما الآخر بسوء من السلوك أو الألفاظ البذيئة.

قال الحافظ: «وقول عائشة: «أجل يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك»[١] قال الطيبي: هذا الحصر لطيف جدًا؛ لأنها أخبرت أنها إذا كانت في حال الغضب الذي يسلب العاقل اختياره لا تتغير عن المحبة المستقرة.

قال ابن المنير: مرادها أنها كانت تترك التسمية اللفظية، ولا يترك قلبها التعلق بذاته الكريمة مودة ومحبة.

قال الحافظ: وفي اختيار عائشة ذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام دون غيره من الأنبياء دلالة على مزيد فطنتها؛ لأن النبي ﷺ أولى الناس به كما نص عليه القرآن، فلما لم يكن لها بد من هجر الاسم الشريف أبدلته بمن هو منه بسبيل حتى لا تخرج عن دائرة التعلق به في الجملة»[٢].

(وأغلب البيوت لا تخلو من مغاضبات بين أهلها حتى بيوت أهل الفضل والصلاح، ولكن أهل الفضل والصلاح لا يتركون الأمور تسير على ما يحبه الشيطان

---

(١) فكيف بمن تهجر فراش الزوجية، أو تترك البيت بدون عذر شرعي؟!
(٢) الفتح (٩/ ٢٣٧).

ويهـواه، بل يتعـوذون بالله من الشيطـان ويستـدركون أمـورهم ويجمـعون شـملهم ويصلحون ما بينهم ويُبطلون كيد الشيطان.

فهذا الصـديق أبو بكر رضي الله عنه لما أرسل الأضياف إلى بيته مع عـبد الرحمن ولده، ورفض الأضياف أن يأكلوا حتى يأتي أبو بكر، فـيأتي أبو بكر ويراهم قد تأخروا عن الطعام فماذا صنع الصديق الكريم؟!! يغضب على أهل بـيته وأضيافه ويسبُّ ويُجدِّع ويقسم ألا يأكل، ويبلغ به الأمر إلى حـد أن يقول للأضياف: كلوا لا هنيئًـا، فيقسم الأضيـاف ألا يأكلوا حتى يأكل، وتـقسم زوجتـه هي الأخرى أنهـا لا تَطعمـه حتى يَطعمه، وفي وسط هذا الغضب الشديد والانفعال الزائد يتذكر هذا الصِّدِّيق الكريم أن هذا من الشيطان فينزع عن غضبه فيسـمي الله، ويقبل على الطعام ويقبل أضيافه على الطعام، فيبـارك الله عزَّ وجلَّ في الطعام. فانظر إلى الصديق كيف رجع عـما هو فيه من غضب وانفعال لما علم أن هذا الذي جـرى وحدث إنما هو من الشيطان، وها هو الحديث بذلك:

أخـرج البخـاري ومـسلم[1] من حـديث عـبـد الرحـمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: أن أصحـاب الصفة كانوا ناسًـا فقراء، وإن رسول الله ﷺ قـال مرة: **«من كان عنده طعام اثنين، فليذهب بثلاثة، ومن كان عنده طعام أربعة، فليذهب بخامس، بسادس»** أو كما قال. وإن أبـا بكر جاء بثـلاثـة وانطلق نبي الله ﷺ بعـشرة وأبو بكـر بثـلاثــة، قال: فـهو وأنا وأبي وأمي - ولا أدري هل قـال: وامرأتي وخادم بين بيـتنا وبيت أبي بكر - قال: وإن أبا بكر تعـشى عند النبي ﷺ، ثم لبث حتى صُلِّيت العـشاء، ثم رجـع فلبث حـتى نعس رسـول الله ﷺ، فـجـاء بعـد مـا مضى من الليـل مـا شـاء الله، قالت له امرأته: مـا حبسـك عن أضيافك، أو قالت: ضـيفك؟ قالت: أو ما عشيتـهم؟ قالت: أَبَوا حتى تجيء، قد عرضوا عليهم فـغلبوهم، قال: فذهبت أنا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٧)، والبخاري (٦١٤٠، ٦١٤١)، واللفظ لمسلم.

فاختبأت، وقال: يا غنثر[١]! فجدع وسب، وقال: كلوا. لا هنيئًا، وقال: والله! لا أطعمه أبدًا. قال: فأيم الله! ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربًا من أسفلها أكثر منها، قال: حتى شبعنا وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر فإذا هي كما هي أو أكثر، قال لامرأته: يا أخت بني فراس! ما هذا؟ قالت: لا. وقرة عيني! لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرار. قال: فأكل منها أبو بكر، وقال: إنما كان ذلك من الشيطان ـ يعني يمينه ـ ثم أكل منها لقمة، ثم حملها إلى رسول الله ﷺ، فأصبحت عنده، قال: وكان بيننا وبين قوم عقد فمضى الأجل، فعرفنا اثنا عشر رجلاً، مع كل رجلٍ منهم أناس، الله أعلم كم مع كل رجل. إلا أنه بعث معهم فأكلوا منها أجمعون، أو كما قال.

وفي رواية أخرى لمسلم[٢]: عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: نزل علينا أضياف لنا، قال: وكان أبي يتحدث إلى رسول الله ﷺ من الليل. قال: فانطلق وقال: يا عبد الرحمن! افرغ من أضيافك[٣]. قال: فلما أمسيت جئنا بقراهم[٤]. قال: فأبوا، فقالوا: حتى يجيء أبو منزلنا[٥]، فيطعم معنا، قال: فقلت لهم: إنه رجل حديد[٦]، وإنكم إن لم تفعلوا خفت أن يصيبني منه أذى، قال: فأبوا، فلما جاء لم يبدأ بشيء أول منهم، فقال: أفرغتم من أضيافكم؟ قال: قالوا: لا، والله! ما فرغنا، قال: ألم آمر عبد الرحمن؟ قال: وتنحيت عنه، فقال: يا عبد الرحمن! قال: فتنحيت، قال: فقال: يا غنثر! أقسمت عليك إن كنت تسمع صوتي إلا جئت، قال: فجئت، فقلت: والله! ما لي ذنب، هؤلاء أضيافك فسلهم، قد أتيتهم بقراهم فأبوا أن يطعموا

---

(١) هو الثقيل الوخيم، وقيل: هو الجاهل، وقيل: هو السفيه.

(٢) (ص:١٦٢٨, ١٦٢٩).

(٣) أي: عَشِّهم وقم بحقهم.

(٤) القرى هو ما يصنع للضيف من مأكول ومشروب.

(٥) أبو منزلنا: أي صاحبه.

(٦) رجل حديد أي فيه قوة وصلابة ويغضب لانتهاك الحرمات والتقصير في حق الضيف.

حتى تجيء، قال: فقال: ما لكم! ألا تقبلوا عنا قراكم! قال: فقال أبو بكر: فوالله! لا أطعمه الليلة، قال: فقالوا: فوالله! لا نطعمه حتى تطعمه، قال: فما رأيت كالشر كالليلة قط، ويلكم! ما لكم أن لا تقبلوا عنا قراكم؟ قال: ثم قال: أما الأولى فمن الشيطان[(١)]، هلموا قراكم، قال: فجيء بالطعام فسمى فأكل وأكلوا، قال: فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! بروا[(٢)] وحنثت، قال: فأخبره، فقال: **«بل انت ابرهم واخيرهم»**.

وليس هذا في بيت أبي بكر فحسب، فهذا رسولنا محمد النبي الكريم عليه أفضل صلاة وأتم تسليم قد آلى من نسائه شهراً واعتزلهن في مشربة له.

وهذا عليٌّ رضي الله عنه أمير المؤمنين رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله[(٣)] يغاضب إحدى سيدات نساء أهل الجنة وهي زوجته السيدة فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، يخرج من البيت بعد مغاضبته لها ويذهب إلى المسجد ينام فيه.

أخرج البخاري[(٤)] من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: إن كانت أحب أسماء عليٍّ رضي الله عنه إليه لأبو تراب، وإن كان ليفرح أن يُدعى بها، وما سماه أبا تراب إلا النبي ﷺ، غاضَبَ يومًا فاطمة فخرج فاضطجع إلى الجدار في المسجد، فجاءه النبي ﷺ يتبعه فقال: هو ذا مضطجع في الجدار، فجاءه النبي ﷺ وامتلأ ظهره ترابًا، فجعل النبي ﷺ يمسح التراب عن ظهره ويقول: **«اجلس يا أبا تراب»**.

---

(١) يعني: اليمين.

(٢) أي: بروا في أيمانهم وحنثت.

(٣) أخرج ذلك البخاري (٣٧٠٢)، ومسلم (٢٤٠٧) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، وله طرق أخرى عن رسول الله ﷺ حاصلها أن النبي ﷺ قال يوم خيبر: **«لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه...»**، فأعطاها عليًا.

(٤) البخاري (٦٢٠٤).

فإذا دبت مشكلة بين زوج وزوجته فعليهما أن يتداركا أمرهما، ويتعوذا بالله من الشيطان الرجيم، ويصلحا ذات بينهما ويغلقا عليهما الأبواب، ويسدلا عليهما الحجاب، فإذا غضب الزوج أو انفعلت الزوجة تعوذا بالله وذهبا فتوضآ وصليا ركعتين، وإن كان أحدهما قائمًا فليجلس، وإن كان جالسًا فليضطجع، أو ليقبل أحدهما على الآخر ويعانقه ويعتذر إليه إذا كان مخطئًا في حقه، وليعفو وليصفح لوجه الله.

ويحضرني في هذا المقام قصة حدثت لفاطمة بنت عتبة بن ربيعة مع زوجها عقيل بن أبي طالب وقد أخرجها ابن سعد في «الطبقات»[1] بإسناد صحيح عن ابن أبي مليكة[2]. قال: تزوج عقيل بن أبي طالب فاطمة بنت عتبة ابن ربيعة، وكانت كبيرة المال فقالت: أتزوج بك على أن تضمن لي[3] وأنفق عليك، قال: فتزوجها، فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة؟ أين شيبة بن ربيعة؟ قال: فدخل يومًا وهو بَرِم، فقالت: أين عتبة بن ربيعة؟ أين شيبة بن ربيعة؟ قال: على يسارك إذا دخلت النار، قال: فشدت عليها ثيابها وقالت: لا يجمع رأسي ورأسك شيء، فأتت عثمان فبعث معاوية وابن عباس، فقال ابن عباس: والله لأفرقن بينهما، وقال معاوية: ما كنت لأفرق بين شيخين من بني عبد مناف، قال: فأتيا وقد شدا عليهما أثوابهما فأصلحا أمرهما.

قلت: فانظر كيف أصلحا ذات بينهما لَمَّا دبت بينهما المشكلة ولم يحتاجا إلى الحكمين وأغلقا عليهما بابهما، فهي امرأة يعتريها ما يعتري النساء من الافتخار بجمال أبيها وعمها (ففي بعض الروايات كانت تقول: أين الذين رقابهم كأباريق الفضة...)، وهو رجل يتحمل مقالتها يومًا بعد يوم، ثم يأتي يوم وهو مرهق متعب

---

(١) ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٨٩).

(٢) وفي سماع ابن أبي مليكة من عثمان نظر.

(٣) أي: لا تتزوج عليَّ، وأقوم أنا بالإنفاق عليك.

ضجر فتقول له: أين عتبة بن ربيعة؟ فيقول لها مقالته: عن يسارك في النار، فتلبس ملابسها وتتجه إلى أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، فيرسل الحكمين فلا يصل الحكمان إلى بيت فاطمة وعقيل إلا وقد اصطلحت فاطمة مع عقيل وأغلقا عليهما الأبواب، فللَّه الحمد، وكذلك فليكن أهل الفضل والصلاح إذا أخطأ أحدهم فليكن سريع الفيئة سريع الأوبة سريع التوبة، وكان الله للأوابين غفورًا)[١].

٣ ـ من الشرك الأصغر: الحلف بغير الله:

في قول عائشة رضي الله عنها: «لا ورب محمد، . . . لا ورب إبراهيم» دعوة للنساء خاصة بوجوب الحلف بالله وحده، حيث إن النساء يكثرن دائمًا من الحلف، فالمفروض على المسلمة في حالة غضبها أو رضاها ألا يخرجها شيء عن توحيدها لله عزَّ وجلَّ.

(فلا يصح القسم إلا بالله عزَّ وجلَّ أو بصفة من صفاته، وفي الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[٢].

وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يحلف بأبيه فقال: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله وإلا فليصمت»[٣].

وإنما كان الحلف كذلك لأنه تعظيم للمحلوف به، وهو لا ينبغي إلا لله، وفيه معنى إشهاد المحلوف به على صدق الحالف، وذلك الإشهاد لا يصح إلا بالنسبة لمن يعلم صدق الشيء المحلوف عليه أو كذبه وليس ذلك إلا لله عزَّ وجلَّ.

كما أن المحلوف به يجب أن يكون ممن يملك عقاب الحالف به والانتقام منه إذا حلف به كاذبًا، وذلك هو الله عزَّ وجلَّ وحده)[٤].

---

(١) «فقه التعامل بين الزوجين»، مصطفى العدوي (ص:٢٩-٣٩) باختصار.

(٢) رواه أحمد في مسنده، والترمذي والحاكم، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» برقم (٢٥٦١).

(٣) رواه مالك وأحمد وغيرهما عن عمر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٩٢٣).

(٤) «دعوة التوحيد» للشيخ محمد خليل هراس (ص:٦٥).

الحديث السادس

الحكمة في حل الخلافات الزوجية

عن النعمان بن بشير ﷺ قال: جاء أبو بكر ﷺ يستأذن على النبي ﷺ فسمع عائشة وهي رافعة صوتها على رسول الله ﷺ، فأذن له، فدخل فقال: «يا ابنة أم رومان!! - وتناولها -، أترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟!»، قال: فحال النبي ﷺ بينه وبينها، قال: فلما خرج أبو بكر جعل النبي ﷺ يقول لها - يترضاها -: «ألا ترين أني قد حلْتُ بين الرجل وبينك».

قال ثم جاء أبو بكر فاستأذن عليه فوجده يضاحكها، قال: فأذن له، فدخل فقال له أبو بكر: «يا رسول الله أشركاني في سِلْمِكما كما أشركتماني في حربكما»[(١)].

الدروس المستفادة:

١ - *نصائح في معالجة الخلافات الزوجية:*

وهي نصائح أهديها لكلا الزوجين حتى يتجنبا وقوع الخلاف ما أمكن، ونصائح أخرى في وسائل معالجة الخلاف بعد وقوعه.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، وأبو داود (٤٩٩٩)، وصححه الألباني «السلسلة الصحيحة» (٢٩٠١).

نصائح تجنب الخلافات:

(يخطئ الكثيرون ممن يتصورون أن الحياة الزوجية يجب أن تكون جنة صغيرة خاصة بأصحابها، وقد خلت من كل المنغصات والمشكلات! فهذا أمر يتنافى وسنة الابتلاء الرباني لبني الإنسان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (سورة الملك: ١-٢).

كما أنه يتنافى وطبيعة الإنسان وحركة الحياة، فالبشر مختلفون في أذواقهم ومؤهلاتهم وقدراتهم وشخصياتهم، ولا يمكن لأي اثنين يجتمعان في خلية زوجية أن يكونا متطابقين تمامًا تطابق نصفي الكرة، ولابد من أن يكون كل منهما متفردًا بشخصية مميزة وذاتية محددة، تجعله بعيدًا عن التماثل مع صاحبه، قريبًا من الاختلاف والتغاير، وبقدر ما يكن التشابه قريبًا من الزوجين والتكافؤ متناسبًا يقل احتمال وجود الشقاق والنشوز بينهما.

ولذلك فعلينا أن نتقبل الخلافات الزوجية على أنه أمر لا مفر منه أو هو شر لابد منه، ولا يعني ذلك أن نستسلم للخلاف وألا نأبه له عند حدوثه، فالخلاف شر وهو يعكِّر النفوس ويقتل بهجة الحياة الزوجية، وعلينا أن نفر منه بكل سبيل، ولكن ينبغي أيضًا أن لا نظن أن الكارثة قد وقعت عند أي خلاف مهما كان، ويجب أن نعلم أيضًا أن لكل جرح دواء، وعلينا أن نحاول دائمًا ولا نيأس من علاج مطلقًا، وفوق هذه القاعدة نستطيع أن نؤسس حياة زوجية سعيدة.

وهذه مجموعة من قواعد وإرشادات ونصائح أرجو إن اتبعها الزوجان أن يسعدا ويقضيا على كل خلاف ينشأ بينهما:

١ ـ محاولة كل من الزوجين تحاشي إثارة مواضيع مثيرة للحساسيات عند الطرف الآخر، أو المعارضة بشدة لكل اقتراح أو رأي يصدر عن زوجه الآخر، أو القيام بعمل شيء يعرف سلفًا أنه لا يرضى عنه أو يثير غضبه، أو طلب ما يريده بصيغة الأمر أو النهي مع التعالي، وهذا الأمر بالذات مطلوب من الزوجة أكثر من الرجل باعتبار أن

له فضل الدرجة والقوامة والقول الفصل، ويمكن لأي من الزوجين وخاصة الزوجة الوصول إلى ما يريد، إما بطريقة التفاهم والإقناع الهادىء، أو بطريقة غير مباشرة توحي إلى الطرف الآخر بأنه هو صاحب الاقتراح وبيده الأمر.

وعلى النقيض من ذلك يجب عدم إظهار المعارضة الصريحة أو الكراهية الشديدة لأمور يعرف أحد الزوجين سلفًا أنها محبوبة ومرغوبة لدى الطرف الآخر، وإنه لا يحتمل معارضتها، ويكفي في هذه الحالة مجرد إبداء ملاحظة يسيرة لا تثير حنقًا ولا توغر صدرًا كنوع من الاختبار، فإذا ما وجد قبولاً مبدئيًا عاد وطرحه مرة أخرى بصورة أوضح وإلا تناساها واستبعد مناقشتها.

٢ - يستحسن في حالة انفعال أحد الطرفين أو كليهما اجتناب طرح أي مناقشة... فما يمكن حله في ساعة الرضا بإشارة يسيرة يستعصي حله في حالة الغضب ولو بكافة أنواع الإقناع والمطالبة، فضلاً عما تجره حالة الغضب والانفعال من أمور لا تحمد عقباها، وأحب هنا أن أذكِّر الرجال بحقيقة هامة، أن في المرأة وجنس المرأة عوجًا بوجه من الوجوه، وهذا ليس فيه تعصب، وإنما هو طبيعة الخلق والفطرة التي فطر الله المرأة عليها.

ولا يمكن أن تكتمل المرأة من كل وجه خلقًا وطباعًا، وهذا معنى حديث النبي ﷺ: **«إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج الشيء في الضلع أعلاه، وإن جئت تقيمه كسرته، وإن استمتعتم بهن استمتعتم بهن وفيهن عوج»**[1].

وأخذ هذا الأمر على علته يفيد الرجال كثيرًا، فافتراض الكمال في المرأة ومحاسبتها على هذا النحو يعني التغاضي عن كثير من النقص ضار بالمرأة والرجل كذلك، وهذا الذي لابد وأن يعتور الحياة الزوجية، ومطالبة المرأة بإكمال هذا النقص مطالبتها بالمستحيل.

---

(١) قد مرَّ تخريجه.

٣ ـ كم من الرجال من يرزقون زوجات هن أرجح منهم عقولاً وأكثر منهم صبراً وحكمة، وأكثر منهم سداد رأي، ولا يخرق هذا القاعدة العامة في الرجال والنساء، ولا يعني هذا أيضًا أن تأخذ المرأة صلاحيات الرجل، وأن يقف الرجل من عقد الزواج مكان المرأة لأن هذا يعني إفسادًا للفطرة، وهدمًا للسعادة الزوجية، وأسلوب إصلاح المرأة لزوجها عند نشوزه وإعراضه هو النصح والاستعانة عليه بالأقربين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (سورة النساء:١٢٨).

وأما أن تقوم المرأة بتقويم عوج زوجها ونشوزه وإعراضه بتعاليها عليه، وهجرها لفراشه أو بضربه وتأديبه، فذلك هو غاية الفساد والإفساد.

٤ ـ الرجل الذي أعطي حق القوامة، عليه الواجب الأول في أن يكون راعيًا وقوامًا، ولا يكون راعيًا وقومًا إلا بأن يكون قدوة في نفسه، قادراً على تقويم غيره.

والقوامة لا تعني البطش والتعالي، وإنما تعني الرعاية والحفظ والرأفة والرحمة ووضع كل أمر في موضعه شدة ولينًا، ولاشك أن سوء استخدام الرجل لصلاحياته المعطاة له يؤدي إلى النقيض.

٥ ـ الوسائل التي أعطاها الله وأرشد إليها الرجال لتقويم نشوز زوجاتهم هي خطوات لابد منها في طريق حل المشكلات الزوجية)[1].

■ *وسائل في معالجة الخلاف بعد وقوعه*:

(يستحسن في محاولة حل المشكلات قبل استفحالها واللجوء إلى التحكيم، اتباع بعض الوسائل التي من الممكن أن تفضي إلى نتائج إيجابية وتساهم في إطفاء الفتنة في مهدها وعودة المياه إلى مجاريها في الحياة الزوجية، وهي ما يأتي:

---

(١) «الخلافات الزوجية في ضوء الكتاب والسنة» رعد كامل الحيالي (ص:٥١-٥٦).

أولاً ـ اللجوء إلى الأساليب السلبية في مـواجهة رياح المشكلة، كالتزام الصمت، أو إظهار المودة، أو نظرة عـتاب. . . أو دمعـة حرة من قبل الزوجـة، وقد روي عن الرسول ﷺ أنـه قال: **«إن الرجل إذا نظر إلى امرأته ونظرت إليه نظر الله إليـهمـا نظر رحمة، فإذا أخذ بكفها تساقطت ذنوبهما من خلال أصابعهما»**[1]، وقال الشاعر:

غلطة ثم لفظة فجواب ❊ فشجار ففرقة فطلاق
أو تغاض فرقّة فدموع ❊ فاعتذار فلمسة فعناق

ومن الأساليب السلبية أيضًا الخروج من الغرفة التي فيها الزوج الآخر والابتعاد عن مسرح المشكلة، ولابد من التأكيد هاهنا من عدم خروج الزوجة من البيت، فلا تخرج مـهما اشتـد الأمر؛ لأن خروجهـا هذا يفتح باب الشقاق والخـلاف يصعب إغلاقـه وقد يصل إلى الطلاق، فـضلاً عن أنه يسـاعد على انتـشار أسـرار الخلاف خارج بيت الزوجية.

ثانيًا ـ محـاولة تحجيم المشكلة بين الزوجين فـقط وعدم إخراجهـا إلى الآخرين مهمـا كانت درجة قرابتهم. . . لاسـيما الأولاد؛ لأن التكتم في مواضـيع كهذه على الأولاد أمر حيـوي يحول دون وقوعهم في القلق والـعقد النفسيـة لما يرونه من قدوة سيـئة داخل أسرة مـضطربة ممزقة. وكـذلك كتمـان الأمر على الأهل لتبـقى المشكلة بسيطة مما يسهل حلها.

ثالثًا ـ ضرورة عـدم ترك الخلاف يبيت في بيت الـزوجية حـتى ولو ليلة واحدة لكي لا يعشعش ويفرخ، وحتى لا تقسوا القلوب وتتنافر بدل أن تتآلف.

ويجمل بـالمرأة هنا أن تأخذ بزمـام المبادرة لمصالحـة الزوج بعد أن تهـدأ نفسـها وتستغفر ربها وتطلب منه العون، وللزوجـة أن تختار أي طريقة مناسبة لإصلاح ذات

---

(١) حديث ضعيف، ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٤٧).

البين، كأن تحاول مناقشة الزوج بعد هدوء العاصفة أو تستميحه عذراً إن كانت مخطئة، وتتغاضى عن أخطائه وتحتسبها عند الله وتسعه بحسن خلقها وسعة صدرها متأسية بتوجيهات الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم في مثل هذه المواقف[١].

روى النسائي بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟ الودود الولود، العؤود على زوجها، التي إذا آذت أو أوذيت، جاءت حتى تأخذ بيد زوجها ثم تقول: والله لا أذوق غُمضاً أو نوماً حتى ترضى»**.

كما يجمل بالزوج أن يكبر بزوجته هذا العمل ويقابلها سماحًا بسماح وعطفًا بعطف فيرأب الصدع ويتلاشى الخلاف[٢].

ومن الوسائل التي يستخدمها أحد الزوجين لهذا الغرض، كتابة رسالة اعتذار أو فتح هاتف للزوج في عمله، أو للزوجة في بيتها، وكذلك من الوسائل أن تتزين الزوجة وتتجمل وتهيء لزوجها الطعام أو المفاجآت بما يحب، أو يقوم الزوج بإحضار هدية لزوجته خلال عودته إلى البيت، وفي هذا الحال يجب على كلا الطرفين عدم معاودة الخوض في موضوع الخلاف السابق وكأن شيئًا لم يكن... وإلا باءت كل الجهود بالفشل.

والمهم في كل هذه الحالات ندم كلا الطرفين على ما بدر منه، ومحاسبة نفسه بهدوء على انفراد، وعقد العزم على رأب الصدع قبل فوات الأوان، ومباشرة ذلك

---

(١) وذلك لعظم حق الزوج على زوجته، وأنه أحد مفاتيحها إلى الجنة.

(٢) يحضرني في هذا المقام تلك المرأة الصالحة التي أغضبت زوجها يومًا، فتركته يهدأ قليلاً ثم جاءته تنظر إليه بحب ومودة قائلة له: «خلاص أنا مش زعلانة منك»، وكأنه هو الذي أخطأ، فلما رأى منها حسن التصرف هدأت نفسه، وأقبل عليها بل واعتذر لها.

دون تردد، فالنفس الأمارة بالسوء قد تحول دون ذلك... مع دراسة المشكلة من كافة الوجوه، وتصور ماذا يحدث لو استمر كلٌّ على موقفه... وما يترتب على ذلك من نتائج سيئة قد تصل إلى الطلاق وهدم الأسرة وتشتيت الأولاد)[1].

٢ ـ *مشروعية تأديب الولي لموليته إذا أساءت إلى زوجها:*

فيشرع لولي الزوجة إن كان والدها أو أخوها أو غيرهما من أوليائها، أن ينكر على موليته إذا ما هي أساءت لزوجها، أو تعدت حدودها، أو أهملت حقوقه، بشرط أن يكون الإنكار أو التأديب في إطار يكفل لها الاستقامة والاستقرار في حياتها الزوجية، وأن يصبرها وينصحها ببذل الجهد في إسعاد زوجها وتحقيق مرضاته.

كما ينبغي للولي أن لا يتدخل في شئون موليته مع زوجها إلا بما ينفعها ويفيدها، ولا يسلك مسلكًا من شأنه هدم قواعد البيت بدعوى تأديبها والإنكار عليها، بل ويتدخل مع زوجها ويوصيه بالصبر عليها، والحلم عليها كذلك، فإن النساء عوان عندنا.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة فلم يجد عليًا في البيت، فقال: **«أين ابن عمك؟»** قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يَقِل عندي[2]، فقال رسول الله ﷺ لإنسان: **«انظر أين هو؟»** فجاء فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقد، فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: **«قم أبا تراب، قم أبا تراب»**[3].

---

(١) عائدة الجراح، مجلة التضامن الإسلامي، السنة الرابعة والأربعون، الجزء التاسع، ربيع الأول ١٤١٠هـ، «مع الأسرة المسلمة» (ص: ٨٦، ٨٧) بتصرف، المصدر السابق (ص: ٨٣-٨٧).

(٢) من القيلولة وهو نوم نصف النهار.

(٣) رواه البخاري (١٠/ ٦٠٣) برقم (٦٢٠٤)، ومسلم (٢٤٠٩).

٣ ـ إن أخطأت الزوجة فلا ينس الزوج محاسنها الأخرى:

روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا، رضي منها آخر»**[١].

(والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ (سورة النساء ١٩). فيندر جدًا أن تجتمع خصال خير في امرأة وقد قال النبي ﷺ: **«إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة»**[٢]، فلا تكاد تجد رجلاً شجاعًا مغوارًا مقدامًا كريمًا سخيًا عالمًا محسنًا متصدقًا كاظمًا للغيظ عافًا عن الناس صبورًا يقوم الليل ويصوم النهار واصلاً للأرحام بارًا بوالديه... نادرًا ما تجد خصال الخير تجتمع في رجل كالإبل في المائة واحد تجده صبورًا على الجوع والعطش مريحًا في المشي هاديء الطبع لبنه كثير... نادرًا ما تجد في الإبل كهذا فإذا كان هذا هو الشأن، الشأن في الناس أنهم كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة، فالنساء اللواتي خلقن من ضلع من باب أولى ألا تجتمع فيهن خصال الخير، فقد تكون المرأة جميلة حسناء ولكنها بذيئة اللسان، وقد تكون جميلة حسناء لسانها طيب وقولها حلو جميل، لكنها مبذرة في الإنفاق ومتوسعة فيه وغير مقتصدة في معيشتها، وقد تكون مقتصدة في معيشتها لكن لا تجيد الطهي والخبيز[٣]، وقد تكون جميلة حسنة الخلق حسنة التبعل

---

(١) أي إن وجد فيها خُلُقًا يُكره وجد فيها خلقًا مرضيًا، بأن تكون شرسة الخلق لكنها ديِّنة أو جميلة أو عفيفة أو رفيقة به أو نحو ذلك، (انظر: شرح النووي على مسلم ٣/٦٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧) من حديث ابن عمر ﷺ مرفوعًا.

(٣) وأسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين العاقلة الرشيدة تقول عن نفسها: ولم أكن أحسن الخبيز. انظر: البخاري (٩/٣١٩)، ومسلم (٥/٢٦)، وزينب بنت جحش أم المؤمنين كانت عابدة متصدقة جميلة لكن تعتريها حدة أحيانًا.

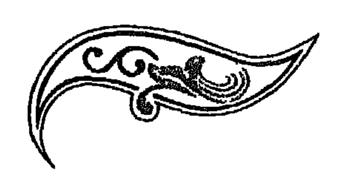
ـ وأمُّنا عائشة ﵂ كانت غيورا مع فضلها وعلمها ﵂.

متقنة لعمل البيت، لكنها شديدة الغيرة وقد يكون فيها ما ذُكر من جمال وبهاء وحسن تبعل وإتقان للعمل إلا أنها ضعيفة في العبادة... إلى غير ذلك.

الشاهد أن المرأة بها عوج كما قال النبي ﷺ كالضلع وكالعود، عودٌ في آخره عوج تريد أن تقوِّمه وتعدله فإذا ذهبت تقوِّمه كُسر منك، وإن تركته بقي أعوج، فكذلك المرأة إن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج.

فلابد أن يكون في المرأة عيب وعوج، وكما قال النبي ﷺ : **«فدارها تعش بها»**.

لا نقول لك اتركها بعيوبها ولكن قوِّمها برفق ولين قدر الاستطاعة وسدد وقارب ولن تستطيع أن تصل إلى التمام لقول النبي ﷺ : «وإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج» فليكن منك هذا الحديث على بال والله المستعان وعليه صلاح الأحوال ولا حول ولا قوة إلا بالله)[1].



(١) «فقه التعامل بين الزوجين»، مصطفى العدوي (ص: ٢٧، ٢٨).

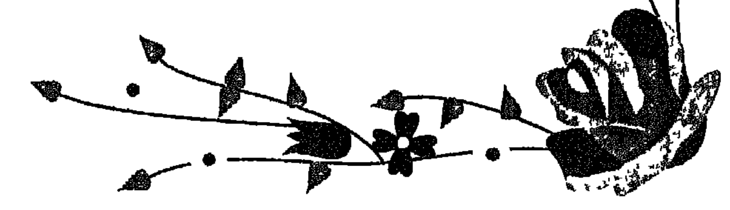
الحديث السابع

اللهو والمرح بين الحلال والحرام

عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «ما فعلت فلانة؟» - ليتيمة كانت عندها - فقلت: أهديناها إلى زوجها، قال: «فهل بعثتم معها بجارية تضرب بالدف وتغني؟»، قالت: تقول ماذا؟ قال: تقول:

«أتيناكم أتيناكم ... فحيُّونا نحيِّيكم
ولولا الذهب الأحمر ... لما حلت بواديكم
ولولا الحبة السوداء ... ما سمنت عذاريكم»[(١)]

وعند البخاري عن الرُبيع بنت معوذ بن عفراء قالت: جاء النبي ﷺ يدخل حين بُنيَ عليَّ فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن[(٢)] من قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غدٍ، فقال: «دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين»[(٣)].



(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» والبيهقي وأحمد، وحسنه الألباني - رحمه الله - بمجموع طرقه، إرواء الغليل (١٩٩٥).

(٢) أي: يذكرن أوصاف الميت بالثناء عليه وتعديد محاسنه.

(٣) فتح الباري (٩/١٠٩).

❤ الدروس المستفادة:

١ ـ شروط ضرب الدف عند النكاح:

قال ﷺ : «**فصل ما بين الحلال والحرام، الدف والصوت في النكاح**»[١] .

قال الشيخ صالح بن غانم السدلان: (ولا بأس بضرب الدف عند النكاح إظهاراً للفرح وإشاعة للسرور، وذلك إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع.

أما الشروط:

(أ) فأن يكون ضرب الدف ضربًا خفيفًا لا إزعاج فيه.

(ب) أن يتولى ذلك النساء لا الرجال. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ولما كان الضرب بالدف والتصفيق بالكف من عمل النساء، كان السلف يسمون من يفعل ذلك من الرجال المغنين مخانيث، وهذا مشهور في كلامهم».

(جـ) أن يكون الضرب بدف لا جلاجل[٢] فيه، ويحرم كل ملهاة سواه؛ كمزمار وناي ورباب وعود وطنبور وقانون وكمان وقضيب وبوق، وكل الآلات الموسيقية الحديثة، الضرب بها وسماعها حرام لدى جمهور أهل العلم.

أما الموانع: فهي انتفاء المفسدة، وأن لا يختلط الرجال بالنساء.

قال ابن قدامة في المغني: «وأما الضرب به ـ أي الدف ـ للرجال فمكروه على كل حال، إنما كان يضرب به النساء، ففي ضرب الرجال به تشبه بالنساء، وقد لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء»)[٣] .

---

(١) رواه الترمذي وغيره، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٢٠٦).

(٢) الجلاجل: جمع جلجل، وهو الجرس الصغير ونحوه.

(٣) مذكرة طلاب كلية الشريعة بالرياض في مقرر الفقه (المستوى الثالث).

■ **ومن شروط الضرب على الدف أيضاً:**

(د) أن يكون الكلام المنشد أو المغنى به خاليًا من الميوعة والفحش والكلمات المثيرة، ونحو ذلك، بل يقتصر على محاسن الكلام وأطايب الشعر.

(هـ) أن لا يصل صوت النساء أو المنشدات إلى الرجال، فلا تستعمل مكبرات الصوت ونحوها، ولا يكون مكان النساء قريبًا من الرجال في تلك الحال.

(و) أن لا يستغرق ضرب الدف وقتًا طويلاً، وأن لا يكون سببًا في السهر وفوات صلاة الفجر، وأن لا تبعثر الأموال بالإنفاق عليه أو على ضاربات الدف، كما هو الحال الأغلب في الأعراس[1].

(فصل) ما حكم رقص النساء في الأعراس والحفلات؟

ونعني به الرقص بين النساء فقط (والرقص في هذه الحالة فيه عدة محاذير، منها:

١ ـ أن بعضًا من النساء عندما ترقص تكشف عما لا يجوز كشفه، وذلك بلبس الملابس الفاضحة، سواء منها المفتوحة من أسفل أو من أعلى أو القصيرة الشفافة أو الضيقة، فحكم الرقص في هذه الحال محرم والنظر إليه من قبل النساء الأخريات محرم أيضًا، والدليل على ذلك ما ثبت في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»**[2].

قال الإمام النووي: «فيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا لا خلاف فيه...»[3].

---

(١) «لطائف وفوائد من الحياة الزوجية في بيت النبوة» (ص:١٩ـ٢٠).
(٢) صحيح مسلم (٣٣٨).
(٣) شرح النووي لمسلم (٤/ ٣٠).

٢ ـ أن بعضًا من النساء تقوم بتقليد الراقصات العاهرات من الكافرات وغيرهن في طريقة رقصها، لتأجيج الشهوات واستثارة الغرائز، وهذا داخل تحت قوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[١]، وهو من التعاون على الإثم والعدوان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (سورة المائدة: ٢)، وحكم الرقص والنظر إليه في هذه الحالة محرم أيضًا.

٣ ـ زيادة على ذلك فإن بعض النساء تتعرض للإصابة بالعين حال رقصها وعرض مفاتنها وتثنيها بين النساء، وذلك لتعلق قلوب بعض النساء بشيء يعجبهن في تلك الحالة وينسين التبريك عليها وذكر الله فيصبنها بالعين أو النظرة حينئذ، وقد قال رسول الله ﷺ: «العين حقٌ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين...»[٢]، وقال رسول الله ﷺ: «أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالنفس» قال الراوي: يعني بالعين[٣]، إذن فالمسلمة في غنى عن التعرض لهذه المشكلات ولن تحصل مقابلها إلا قول النساء الأخريات: رقص فلانة حسن، ورقص علانة سيء!!

هذا علاوة على احتمال وجود كاميرات التصوير المخفية أو الظاهرة، وهذا فيه من الشرور والمفاسد ما لا يعلمه إلا الله، وتحريم ذلك واضح بيِّن.

فالذي يجدر بالمسلمة العاقلة؛ أن تتنزه عن التعرض لهذه المحذورات متذكرة سوء عاقبة التمادي أو التساهل بها)[٤].

٢ ـ مفهوم اللهو في الإسلام:

إن الدين الإسلامي دين الفطرة، والفطرة تميل إلى اللهو والترفيه، لذلك فقد أباح الإسلام اللهو والترفيه عن النفس في حدود الآداب المشروعة في مناسبات عديدة.

---

(١) سنن أبي داود (٤٠٣١)، وصححه الألباني.

(٢) صحيح مسلم (٢١٨٨).

(٣) رواه البزار، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٢٠٠).

(٤) «لطائف وفوائد من الحياة الزوجية في بيت النبوة» (ص: ٢٣-٢٥).

(واللهو في الإسلام إنما هو الترويح عن النفس ولكن بما تقتضيه حكمة الإسلام، بحيث لا يصبح الترويح هدفًا في ذاته، فينصرف إليه المسلم فيأتي على كل وقته، بل ساعة وساعة دون ما فصل بين الساعتين؛ لأن الأولى معينة على الأخرى إذا اعتبرناها ساعة ترويح عن النفس للقيام بحق ما أنيط بالساعة الأخرى من تبعات ومهمات، تحتاج للقيام بها إلى نشاط في العقل، وحركة في القلب، وحيوية تدبُّ في النفس، وكل ذلك يجعل المسلم مقبلاً على عمله متوفر الحس والرغبة، وبذا يتحقق الإتقان، ويعطى كل ذي حق حقه.

ولقد فهم صحابة رسول الله ﷺ حقيقة اللهو المباح، وهم الجيل الأول الذي أخذ الدين عن رسول الله ﷺ علمًا وعملاً، فهذا علي بن أبي طالب يقول: **«إن القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة»**، أي ما يخفف عنها الملل ويذهب السأم.

وقال أيضًا رضي الله عنه: **«روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أكره عَمِيَ»**. وثبت من فعل أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يتبارحون (يترامون) بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال.

وفي صحف إبراهيم عليه السلام: **«وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون له على سائر الساعات»**.

ومن كلام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «تحدثوا بكتاب الله تعالى وتجالسوا عليه، وإذا مللتم فحديث من أحاديث الرجال حسن جميل».

وقال بعض الحكماء من السلف: «القلوب تحتاج إلى قوتها من الحكمة، كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الغذاء».

ومعنى ذلك أن الترويح عن النفس والقلب لم يأت على جُلِّ أوقاتهم، بل كانوا ﷺ يبتغونه ساعة الفراغ من الواجبات والمسئوليات، ولم يكن الترويح في حياتهم ليحول بينهم وبين أداء حق أو قيام واجب)[١].

ويقول الأستاذ صلاح الدين المنجد: «الترويح مصطلح جديد يقابل الترفيه والتسرية والتسلية، ولا نجد له شيوعًا لدى سلف هذه الأمة، فلم تصنف باسمه كتب أو أبواب، وإن كانت محتويات الترويح ووسائله وشيء من موضوعاته سجلت تحت موضوعات مختلفة مثل كتب الحكايات والأسمار، وكتب النوادر والطرائف، وكتب الفروسية، والصيد والقنص، وكتب غرائب البلاد، والرحلات وغيرها»[٢].

ولعل التعريف الأنسب لمعنى الترويح أو اللهو هو: «نشاط هادف وممتع يمارس اختياريًا بدافعية ذاتية وبوسائل وأشكال عديدة مباحة شرعًا، ويتم غالبًا في أوقات الفراغ»[٣].

٣ ـ موقف الإسلام من اللهو والترويح:

(إن شريعة الإسلام بكمالها وشمولها لم تترك مجالاً من مجالات حياة الإنسان إلا وبينت حكمه، وفصلت في ذلك تفصيلاً كافيًا لاستقامة حياة البشر... علم ذلك من علمه، وجهله من جهله...

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام:٣٨).

وهذه الشريعة الغراء تميزت بسماحة ويسر واستجابة لمتطلبات الإنسان وظروفه وإمكاناته، فرغم أن الإنسان لم يوجد على هذه البسيطة إلا لعبادة الله وإقامة شرع الله

---

(١) «اللهو المباح في العصر الحديث بما يوافق الشرع الحنيف» أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، (ص: ١٤، ٢٥، ٢٦) بتصرف يسير واختصار.

(٢) كتب الترويح في التراث العربي.

(٣) «الترويح التربوي رؤية إسلامية» خالد العودة، (ص: ٢٥).

وخلافته في الأرض. . . ورغم ما تستدعيه هذه المهمات العظام والوظائف الجسام من جد ونشاط، واستغلال لكل دقيقة من عمر الإنسان، ولكل طاقة من جهده، ولكل دقيقة أو جليلة من إمكاناته. . . برغم كل هذا إلا أنها لم تعامل الإنسان باعتباره كائنًا ملائكيًا، ولم تُحمله أكثر من طاقته، وراعت حاجاته وقدراته ورغباته المغروسة في نفسه، وكيف لا تصنع هذه وهي تنزيل من لدن خبير عليم. . .

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك: ١٤).

إن الإسلام دين الوسطية. . . لا تجوز فيه رهبانية النصارى ولا مادية اليهود، التبتل والانقطاع عن الدين فيه مذموم، والإغراق في الملذات والشهوات والرغبات مذموم أيضًا)[١].

لذا كان لابد من وقت عند المسلم ـ والأولاد بصفة خاصة ـ يستريحون فيه من تعب تحصيل العلم الشرعي أو الدنيوي، وذلك لإزالة ما يشعر به المرء من السآمة والملل والتعب، وتجديد لنشاطه وحركته، وصفاء لذهنه، وترويض لجسمه من أن يصاب بالأمراض والآفات.

وانطلاقًا (من ملاعبة النبي ﷺ للصبيان وملاطفتهم، والترويح عن نفوسهم نادى علماء التربية الإسلامية بحاجة الطفل إلى اللعب والمرح والترويح عن النفس بعد الانتهاء من دروسه وعمله)[٢].

وينبغي أن يعلم كل مسلم أن اللهو المباح حين رُخص فيه، لا ليكون عادة للمسلم وغالب وقته، بل لكي يستريح من تعبه ونصبه، إذ إنه (لا بأس على المسلم أن يلهو ويمرح ويتفكه، على ألا يجعل ذلك عادته وخلقه، ويملأ بها صباحه ومساءه،

---

(١) «الترويح التربوي رؤية إسلامية» خالد العودة (ص٢٧٠).
(٢) «تربية الأولاد في الإسلام» عبد الله ناصح علوان (٢/ ٩٣٧).

فيهزل في موضع الجد ويعبث ويلغو وقت العمل)[1]، وذلك لأننا أمة جادة مجاهدة وُجدت لتقود البشرية، وأمة الهزل والعبث أمة في مؤخرة ذيل الدنيا، لذا كانت أمة الإسلام، هي الأمة الرائدة منذ بعثة النبي ﷺ إلى أن تقوم الساعة، حتى وإن ضعفت في بعض الأحيان، إلا أنها سرعان ما تقوم وتواصل السير كما أراده الله عزَّ وجلَّ لها.

■ أما عن أقسام الترويح فهي كالآتي:

١ ـ الترويح أو اللهو المحرم:

وهو كل ترويح وردت النصوص بتحريمه تحريمًا قطعيًا، حتى وإن لم نعرف السبب، إذ أن الله تعالى تعبدنا بالطاعة والانقياد فيما نحب أو نكره.

ومن أمثلة ذلك اللعب بالنرد ـ وهو الطاولة في أيامنا هذه ـ فقد روى الإمام مسلم قول النبي ﷺ: **«من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه»**.

وكذلك الغناء الفاحش لاسيما إذا صحبته المعازف، أو كان من امرأة لرجال أو العكس، وكذلك اتخاذه مهنة وحرفة، والدليل على ذلك قوله ﷺ عند البخاري: **«ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحرَ والحرير والخمر والمعازف»**.

وكذلك الذهاب إلى الشواطيء في وجود هذا الاختلاط الشائن المحرم والسباحة وظهور العورات، والسباق إذا اقترن برهان محرم.

وكذلك السياحة التي تشتمل على صور من الفساد والخنا ومشاهدة العري الفاضح وتعاطي الخمور والمخدرات.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٨٧٠).

٢ ـ الترويح المندوب:

وهو ذلك الترويح الذي يمارسه الإنسان لأحد سببين إما اقتداءً برسول الله ﷺ فهو سنة من السنن، أو لأنه يحقق للإنسان فوائد لا تتم إلا به، وتتم ممارسته في ظل الضوابط الشرعية التي تكفل له الانضباط. ومن ذلك مثلاً: أعمال الفروسية من تأديب للفرس، ولهو بالسهام، ورمي، ومسابقة، وغيرها.

وقد حث عليها رسول الله ﷺ في أحاديث عديدة منها قوله: **«كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب، إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة»**(١)، والاستثناء ليس للحصر لوجود أحاديث أخرى زادت عن هذه الأربعة.

وفي هذا الحديث نص على أن هذه الألوان من الترويح محمودة وأنها من ذكر الله، وما ذلك إلا لأنها تحقق أهدافًا كبرى: كالاستعداد للجهاد بتقوية الجسم، وإعداد النفس، وتعويد الإنسان على نبذ التنعم والكسل.

والرسول ﷺ يدعو لتعلم ألوان من الترويح: **«عليكم بالرمي فإنه من لعبكم»**(٢).

ويؤثم من تعلمها ثم تركها إذ يقول ﷺ: **«من تعلم الرمي ثم تركه، فليس منا ـ أو ـ قد عصى»**(٣).

وفي رواية: **«فإنها نعمة كفرها»**(٤).

---

(١) الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٩٣)، قال الهيثمي (٥/ ٢٦٩): رجال رجال الصحيح، الألباني، (صحيح الجامع ٤٥٣٤).

(٢) الألباني «صحيح الجامع» (٤٠٦٥).

(٣) مسلم (٣/ ١٦٩).

(٤) الطبراني، الرمي (حديث ٢٣، ٢٤).

والفروسية عمومًا داخلة في القوة المطلوبة من المسلم: قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (سورة الأنفال: ٦٠).

وقد فسر رسول الله ﷺ «القوة» بأنها الرمي... فقال وهو فوق المنبر: **«ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»**[(١)].

ومن ثم فالمسلم مدعو ليقضي بعض وقته في تعلمها وإتقانها واستمرار ممارستها، وما ذلك إلا لأنها تفضي إلى أهداف هامة وفوائد عديدة تعود على ذات الشخص جسمًا وروحًا وتعود في مجموعها على المجتمع قوة ونشاطًا وحيوية.

ومن الترويح المندوب أيضًا: السباحة، والمسابقة، والمصارعة، والممازحة، وكل ذلك بضوابط معينة تكفل عدم الخروج عن مرتبة المندوبية إلى مرتبة أقل منها كالإباحة أو إلى مرتبة مضادة لها كالكراهية أو التحريم.

وقد عدَّ ابن القيم بعض الرياضات والمسابقات من أشرف عبادات القلوب والأبدان حيث قال في مقدمة كتابه الفروسية: «هذا مختصر في الفروسية الشرعية النبوية التي هي من أشرف عبادات القلوب والأبدان، الحاملة لأهلها على نصرة الرحمن السائقة إلى أعلى غرف الجنان»)[(٢)].

٣ ـ الترويح المباح:

من رحمة الله بنا ونعمته علينا أن جعل دين الإسلام دينًا شاملاً يأخذ الإنسان بكل ما هو عليه، يأخذ الإنسان من كافة زواياه وجوانبه، ويراعي فيه طبيعته البشرية القاصرة، يأخذ الإنسان بهذا الشمول ليصل به إلى التوازن والانسجام والسلام، وليباعد ما بينه وبين التناقض والصراع، ولذا فقد راعى الإسلام الإنسان: عقلاً له تفكيره، وجسمًا له مطالبه، وروحًا لها أشواقها وسبحاتها.

---

(١) مسلم (٣/١٦٧).

(٢) «الترويح التربوي» خالد العودة (ص: ٣١، ٣٢).

وإذا كان الإنسان قد خلق لهدف واحد سام هو العبادة... ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (سورة الذاريات: ٥٦). وهي تكليف للإنسان يستدعي منه جدًا وكدحًا وعملاً متواصلاً وكفاحًا مريرًا... ولذا فلا يتوقع من الإنسان المكلف بمثل هذا التكليف أن يركن للترف واللهو والكسل والخمول والفراغ... فالحياة أقصر وأثمن من أن تضيع في لهو عابث... أو تهدر في ترويح مستمر متواصل.

إلا إن الإسلام ـ مراعاة منه لطبيعة الإنسان ـ جعل لهذا المخلوق المكلف الضعيف فسحة من الأمر ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ (سورة البقرة: ١٨٥)، وجعل لهذه الفسحة ما يضبطها من قواعد حتى لا تخرج عن الإطار الذي حُدد لها وحتى لا تفسد الهدف الأسمى الذي يكدح الإنسان من أجله.

فأباح الله سبحانه للإنسان بعد الجد والكدح أن يأخذ شيئًا من الراحة والاستجمام يريض بها جسمه، ويعيد بها نشاطه، ويحيي بها نفسه، ويعيد إليها تجددها، ويريح عقله، ويعيد له صفاءه وتوقده.

وجعل الترويح على مرتبتين: إحداهما مذمومة حذر الإنسان منها، والأخرى مباحة، وهذه الألوان الترويحية المباحة جعلها على قسمين: أحدهما فاضل والآخر مفضول، وهذا التفضيل راجع إلى نية الإنسان من ناحية وإلى هدف الترويح وفائدته من ناحية أخرى، إلا أنهما جميعًا داخلان في الإطار العام للدين فلا يعارضان شيئًا من النصوص الشرعية، ولا يهدران شيئًا من حقوق الله أو حقوق العباد أو النفس... ولا يبالغ فيهما مبالغة تخرجها عن أهدافها أو تخل بشخصية المسلم الجادة الهادفة.

والترويح المباح شرعًا واسع المساحة، متنوع الألوان والأنماط، متعدد الوسائل، مختلف الاتجاهات، متجدد تجدد الأزمنة، متطور تطور التقنية.

وعمومًا فمن الممكن تحديد بعض السمات العامة للترويح المباح في كل عصر وفي كل مكان والتي تميزه عن أنماط الترويح غير المقبول، ومن ذلك:

- **الانضباط الشرعي:** فلا يخرج عن حدود الشرع المطهر، ولا يتعدى على المحرمات أو المكروهات بل هو منضبط بجميع الضوابط الشرعية.

- **المردود الإيجابي:** فلا يُقبل شرعًا أن يكون الترويح لتضييع الأوقات وإهدارها دون مردود إيجابي على الفرد، سواء كان هذا المردود مباشرًا أو غير مباشر، آنيًا أو مستقبليًا، فحياة المسلم كلها لله، لا يجوز له أن يفرط فيها، أو في شيء منها.

- **التكامل والتوازن:** فلا يصح أن يأخذ الترويح أكبر من الوقت المخصص له، كما أن هذا الوقت لا يجب أن يصرف في أنماط محددة تجعل الإنسان ينمو نموًا غير متوازن.

- **الإشباع:** فإن أصل الترويح لإراحة النفس المجهدة، وتجديد النشاط، وإعادة الصفاء للذهن من أجل الاستعداد للعودة النشيطة للعمل... ولذا فإن الترويح إذا لم يحقق هذه الوظيفة الهامة من وظائفه يصبح هامشيًا لا فائدة منه.

ومن الأدلة على وجود هذا القسم من أقسام الترويح ما ورد عن الرسول ﷺ حين شاهد الحبشة يلعبون ويلهون ـ قيل إنهم يرقصون ـ قال لهم ﷺ: **«خذوا - وفي رواية - العبوا يا بني أرفدة! حتى تعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة»**[1]، والفسحة المتسع.

وفي الأثر: **«يا حنظلة! ساعة وساعة»**[2]،[3].

---

(١) الألباني «الصحيحة» (حديث ١٨٢٩).

(٢) مسلم (٤/٢١٠٧).

(٣) الترويح التربوي (ص ٣٣، ٣٤).

(فصل) نماذج من التطبيق العملي للترويح في عصر الرسول ﷺ:

وكان الصحابة في عهد الرسول ﷺ وما بعده ينشدون وهم على الإبل متجهون لتجارة أو جهاد أو غيرهما.

وفي مسير الرسول ﷺ لخيبر ـ وكان الوقت ليلاً ـ قال رجل منهم لعامر بن الأكوع وكان حاديًا حسن الصوت: يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ فبدأ عامر يحدو بالناس ويقول:

اللَّهم لولا أنت ما اهتدينا ○■○ ولا تصدقنا ولا صلينا

... إلخ.

وقد سمعه الرسول ﷺ فسأل عنه، فقيل له: عامر بن الأكوع، فقال: **«يرحمه الله»**[(١)].

وروى البخاري عن البراء ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق وهو يرتجز برجز عبد الله بن رواحة:

«اللَّهم لولا أنت ما اهتدينا ○■○ ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ○■○ وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأعداء قد بغوا علينا ○■○ وإذا أرادوا فتنة أبينا»

وكان الرسول ﷺ يرتجز بذلك رافعًا صوته.

أما الغناء فقد رُوي منه مثل ما روي عن الحداء والرجز، وروي منه غناء المرأة لبنات جنسها في الزفاف، وروي منه غناء الجواري ـ البنات الصغيرات ـ بحضرة الرجال، وكان هذا الغناء بدون آلات إلا أن يكون الدف في الأفراح كما سبق بيانه.

---

(١) رواه البخاري.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال النبي ﷺ: **«يا عائشة أكان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»**.

وكان الرسول ﷺ يداعب أصحابه، ومن مزاحه ﷺ أنه كان ينادي أحد الصحاب بـ**«يا ذا الأذنين»**، ورسول الله ﷺ صادق في وصفه إياه بذلك.

وأتى رجل إلى النبي ﷺ وهو يُعد للجهاد، فقال له: احملني يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: **«إنا حاملوك على ولد ناقة»** فقال الرجل: وما أصنع بولد الناقة؟! فقال النبي ﷺ: **«وهل تلد الإبل إلا النوق؟!»**[1].

وعرف في مجتمع الرسول ﷺ العديد من المسابقات والمنافسات ـ ذات الطابع الرياضي ـ كالمصارعة وسباقات الأقدام، وسباق الخيول أو الجمال، أو سباقات الرمي والفروسية.



(١) صحيح الجامع (٧١٢٨)، ورواه أحمد في مسنده، وأبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه.

الحديث الثامن

إنكار المنكر داخل البيت المسلم

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترتُ بِقرام لي على سَهْوة لي فيها تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه، وقال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله» قالت: فجعلناه وسادةً أو وسادتين[1].



♥ الدروس المستفادة:

١ - *يجب إنكار المنكر حتى لو صدر من أحد الزوجين ولو من غير قصد من أحدهما:*

يجب على كل زوج مسلم أن يعلم أهل بيتـه، ويؤدبهم ويزكي نفوسهم بالدين، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (سورة التحريم:٦)، وأن يأخذ على أيديهم إذا صدر منهم قول أو فعل منكرٌ في الشرع.

ولكن يراعي عند إنكار المنكر مسألة مهمة جدًا ألا وهي: هل كان هذا المنكر عن قصد أو غير قصد؟ فقد تجتهد المرأة داخل البيت في عمل شيء من أعمال الخير، ولكنها تقع في منكر من المنكرات وهي لا تدري، فحينئذ يجب ألا تكون هناك

---

(١) رواه البخاري (١٠/٣٨٦، ٣٨٧)، ومسلم (٢١٠٥).

- السَّهْوة: قال الأصمعي: هي شبيهة بالرف أو بالطاق يوضع عليه الشيء.

مجاملة أو سكوت عن المنكر، بل يجب تغييره بالأسلوب المناسب، لاسيما إن صدر عن غير قصد، وعلى المرأة ألا تجادل ولا تتكاسل ولا تعرض، بل تُذعن وتستجيب متى تبين لها الحق.

وفي هذا الحديث أرادت عائشة أن تستر عندها بعض الرفوف أو الخزانة الصغيرة في بيتها بقرام وهو الستر الرقيق، ولكن كان على هذا السِّتْر تماثيل، ففعلت ذلك وهي لا تدري بالطبع أن ذلك حرام.

فلما جاء رسول الله ﷺ من سفره ورأى ذلك المنكر وهذه التماثيل، غيَّر هذا المنكر فورًا، وهتك هذا الستر، وبيَّن لها النبي ﷺ أن ذلك حرام.

وأن الذي يفعل مثل هذه الصور أو التماثيل من أشد الناس عذابًا يوم القيامة.

فأذعنت عائشة رضي الله عنها مباشرة ولم تجادل أو تتوانى، وجعلت هذا الستر لوسادتين عندها.

إن من قوامة الرجل داخل البيت إزالة المنكرات الموجودة فيه.

٢ ـ الأدلة على حرمة التصوير والتماثيل:

قال الإمام مسلم في صحيحه: «باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتًا فيه صورة أو كلب»[(١)].

وبهذا بيَّن رحمه الله حكم الإسلام في تصوير ذوات الأرواح، ثم ذكر تحت هذا الباب أحاديث منها:

١ ـ عن أبي طلحة عن النبي ﷺ قال: **«لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة»**.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٤/ ٢٦٧).

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «قال العلماء: سبب امتناعهم من بيت فيه صورة كونها معصية فاحشة، وفيها مضاهاة لخلق الله تعالى، وبعضها في صورة ما يعبد من دون الله تعالى.

وسبب امتناعهم من بيت فيه كلب لكثرة أكله النجاسات، ولأن بعضها يسمى شيطانًا كما جاء به الحديث، والملائكة ضد الشياطين، ولقبح رائحة الكلب، والملائكة تكره الرائحة القبيحة، ولأنها منهي عن اتخاذها فعوقب متخذها بحرمانه دخول الملائكة بيته وصلاتها فيه، واستغفارها له، وتبريكها عليه وفي بيته، ودفعها أذى للشيطان.

وأما هؤلاء الملائكة الذين لا يدخلون بيتًا فيه كلب أو صورة فهم ملائكة يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار، وأما الحفظة فيدخلون في كل بيت، ولا يفارقون بني آدم في كل حال؛ لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها»[1].

٢ ـ وعن أبي طلحة الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلبٌ ولا تماثيل»**.

٣ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت على بابي دُرْنُوكًا[2] فيه الخيل ذوات الأجنحة، فأمرني فنزعته.

٤ ـ وعنها أيضًا أنها اشترت نُمْرُقَة[3] فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب، فلم يدخل، فعرفت، أو فُعرفت في وجهه الكراهية، فقالت: يا رسول الله، أتوب إلى الله ورسوله، فماذا أذنبت؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ما بال هذه النمرقة؟!»**، فقالت: اشتريتها لك تقعد عليها، وتَوَسَّدها، فقال رسول الله

(١) المصدر السابق (١٤/٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) الدُرنوك: هو ستر له خمل.

(٣) النمرقة: الوسادة.

ﷺ : **«إن أصحاب هذه الصور يُعذبون، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»** ثم قال: **«إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة»**.

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «وهذه الأحاديث صريحة في تحريم تصوير الحيوان، وأنه غليظ التحريم، وأما الشجر ونحوه مما لا روح فيه فلا تحرم صنعته، ولا التكسب به، وسواء الشجر المثمر وغيره»[١].

٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من صور صورة في الدنيا كُلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ»**، وفي رواية: **«كل مُصَوِّر في النار يُجعل له بكل صورة صوَّرها نفساً فتعذبه في جهنم»**.

٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«لا تدخل الملائكة بيتًا فيه تماثيل أو تصاوير»**.

قال الألباني ـ رحمه الله ـ: «على ما ذكرناه جرى عليه عمل السلف الصالح رضي الله عنهم ، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا» وذكر منها ـ رحمه الله ـ عن أبي مسعود عقبة بن عمرو أن رجلاً صنع له طعامًا، فدعاه، فقال: أفي البيت صورة؟ قال: نعم، فأبى أن يدخل حتى كسر الصورة، ثم دخل[٢].

(فصل) فتاوى مهمة حول التصوير[٣]:

١ ـ حكم المصورين:

س: ورد لعن المصوِّرين ـ بالكسر ـ فهل يشمل المصوَّرين ـ بالفتح ـ وهل ورد فيهم دليل خاص؟

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٤/ ٢٧٥).

(٢) «آداب الزفاف في السنة المطهرة» (ص: ١٦٤ , ١٦٥).

(٣) «فتاوى إسلامية» (٣/ ٢٩٨-٣٠٩)، الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، رئيس الشئون الدينية في دار الفتوى اللبنانية.

☑ كما أن الأدلة وردت في لعن المصورين وتوعدهم بالنار في الدار الآخرة فكذلك الذي يقدم نفسه من أجل أخذ صورة له داخل في ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ (سورة النساء: ١٤٠)، وقال تعالى في قصة ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (سورة الشمس: ١١-١٥).

قال عبد الواحد بن زيد: قلت للحسن: يا أبا سعيد أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب إلا أنه رضي بقلبه. قال: يا ابن أخي لهذا عقرت الناقة. قال: فعلت يدٌ واحدة. قال: أليس قد هلك القوم جميعًا برضاهم وتساليهم؟[١].

فهاتان الآيتان تدلان على أن الراضي بالفعل كالفاعل، ولا يدخل في ذلك من اقتضت الضرورة أن يأخذ صورة له، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

٢ - الاحتفاظ بالصور للذكرى:

س: هل يجوز الاحتفاظ بصور الصغار، والصور مصورة نصف الجسم وبعضهم كامل الجسم للاحتفاظ بها في «ألبوم» فقط وليس الاحتفاظ بقصد التعليق على جدران المنزل؟ أفيدونا بذلك.

☑ لا يجوز الاحتفاظ بالصور ولو غير معلقة على الجدران أو غيرها إلا في تابعية أو جواز سفر أو نقود أو نحو ذلك مما تدعو إليه الحاجة، لقول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «لا تدع صورة إلا طمستها».

---

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد.

٣ ـ صور جميع الأحياء محرمة إلا للضرورة:

س: لقد بلغنا من بعض الناس أن الصور حرام، وأن الملائكة لا تدخل البيت الذي توجد به الصور. هل هذا صحيح؟ وهل القصد من هذه الصور المحرمة المصورة كهيئة الآدمي أو الحيوان يعني المجسمة؟ أم هي تشمل جميع التصاوير كالصورة الموجودة في حفيظة النفوس والموجودة في الفلوس، إذا كان التحريم يشمل هذا كله فما هو الحل من إخلاء البيت من هذه كلها؟ أفيدونا.

☑ نعم إن صور جميع الأحياء من آدمي أو حيوان حرام سواء كانت مجسمة أم رسومًا وألوانًا في ورق ونحوه أم نسيجًا في قماش أو صور شمسية، وإن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة لعموم الأحاديث الصحيحة التي دلت على ذلك ويرخص فيما دعت إليه الضرورة كالصور التي للمجرمين والمشبوهين لضبطهم، والصور التي في جوازات السفر وحفائظ النفوس، ويرجى ألا تكون هذ وأمثالها مانعة من دخول الملائكة البيت لضرورة حفظها وحملها. والله المستعان.

وهكذا الصور التي تمتهن كالتي في الفراش والوسائد، ومن الأحاديث الواردة في ذلك قول النبي ﷺ: **«إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»**[1]. وروي أيضًا عن أبي جحفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ لعن آكل الربا وموكله ولعن المصور.

٤ ـ حكم تعليق الصور في المنازل:

س: ما حكم تعليق الصور في البيوت وفي غيرها؟

☑ حكم ذلك التحريم إذا كانت الصور من ذوات الأرواح من بني آدم أو غيرهم لقول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: **«لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»**[2]،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

ولما ثبت عن عائشة ﵂ أنها علقت على سهوة لهـا ستراً فيه تصاوير، فلما رآه النبي ﷺ هتكه وتغير وجـهه ﷺ وقال: **«يا عائشة! إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»**[١].

لكن إذا كانت الصورة في بساط يمتهـن أو وسادة يرتفق بها فلا حرج في ذلك لما ثبت عن النبي ﷺ أنه كان على موعـد من جبرائيل، فلما جاء جـبرائيل امتنع عن دخول البيت فسأله النبي ﷺ فقال: «إن في البيت تمثالاً وستراً فيه تصاوير، وكلبًا، فمُـرْ برأس التمثال أن يقطـع، وبالستر أن يتخـذ منه وسادتان منتبـذتان توطآن، ومُرْ بالكلب أن يخرج؛ ففعل ذلك النبي ﷺ فدخل جبرائيل عليه السلام»[٢].

وفي الحـديث المذكور أن الكلب كـان جرواً للحـسن أو الحسين تحت نضـد في البـيت، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قـال: **«لا تدخل الملائكة بيتـًا فـيه صـورة ولا كلب»**[٣]، وقصـة جبريل هذه تدل أن الصـورة في البساط ونحـوه لا تمنع من دخول الملائكة ومـثل ذلك ما ثبت في الصـحيح عن عـائشة ﵂ أنهـا اتخذت من السـتر المذكور وسادة يرتفق بها النبي ﷺ.

٥ـ التصوير الفوتوغرافي الشمسي وشراء المجلات والجرائد المليئة بالصور والنظر إلى التلفاز:

س: ورد إلى اللجنة[٤] سؤال برقم ١٤٣٤ في ١١/٤/١٤٠٠هـ، ونصه: قد اختلفنا في موضوع التصوير الفوتوغرافي والشمسي الذي لم تذكروه في رسالتكم[٥]، ما حكم التـصوير؟ وهل هو داخل في حكم التـصوير اليـدوي أم أنه خـارج عنه؟ وقـد ادعى

---

(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) أخرجه النسائي وغيره بإسناد جيد.

(٣) متفق عليه.

(٤) اللجنة الدائمة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

(٥) أي رسالة الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ في التصوير.

بعضهم أنه جائز لأنه ليس تصويراً يدوياً، وإنما هو عبارة عن التقاط صورة لخيال الإنسان مع عدم بذل أي جهد سوى الضغط على الزر لتخرج الصورة مطابقة للخيال، وقد أراني أحد أصدقائي صورة فوتوغرافية لفضيلتكم في مجلتي المجتمع الكويتية والاعتصام المصرية مع فتواكم في أحكام الصوم في شهر رمضان المبارك، فهل ظهور صورتكم في المجلة دليل على جواز ذلك؟ أم أن هذا الشيء حصل من غير علمكم؟!

وإن كان التصوير الفوتوغرافي غير جائز فما حكم شراء المجلات والجرائد المليئة بالصور مع ما فيها من أخبار مهمة وغير ذلك من المعلومات الغث منها والسمين؟ أفيدونا في هذا، وهل يجوز وضع هذه المجلات في المصلى حتى ولو مغطاة بثوب ونحوه، أم يجب إتلافها بعد قراءتها؟ وما هو حكم النظر إلى الصور المتحركة مثل التي في التلفاز؟ وهل يجوز تشغيل التلفاز في المصلى؟ أفيدونا في أحكام هذه الأشياء أفادكم الله.

☑ **أولاً** ـ التصوير الفوتوغرافي الشمسي من أنواع التصوير المحرم، فهو والتصوير عن طريق النسيج والصبغ بالألوان والصور المجسمة سواء في الحكم والاختلاف في وسيلة التصوير وآلته لا يقتضي اختلافًا في الحكم، وكذا لا أثر للاختلاف فيما يبذل من جهد في التصوير صعوبة وسهولة في الحكم أيضًا، وإنما المعتبر الصورة، فهي محرمة وإن اختلفت وسيلتها وما بذل فيها من جهد.

ثانيًا ـ ظهور صورتي في مجلتي (المجتمع) و(الاعتصام) مع فتواي في أحكام الصيام في شهر رمضان ليس دليلاً على إجازتي التصوير، ولا على رضاي به، فإني لم أعلم بتصويرهم إياي.

ثالثًا ـ المجلات والجرائد التي بها أخبار مهمة ومسائل علمية نافعة وبها صور لذوات الأرواح يجوز شراؤها والانتفاع بما فيها من علم مفيد وأخبار مهمة لأن المقصود منها ما فيها من العلم والأخبار، والصور تابعة والحكم يتبع الأصل المقصود

إليه دون التابع، ويجوز وضعها في المصلى مع إخفاء ما فيها من الصور بأي شكل لينتفع بما فيها من مقالات أو طمس رءوس الصور بما يذهب بمعالمها.

رابعًا - لا يجوز وضع التلفاز في المصلى لما فيه من اللهو الباطل ولا يجوز النظر إلى ما فيه من الصور العارية أو الخليعة، وقد صدرت فتوى في حكم التلفاز وما يتعلق به من سماع ونظر إلى ما فيه. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

٦ - جمع الصور للذكرى:

س: هل يجوز جمع الصور بقصد الذكرى أم لا؟

☑ لا يجوز لأي مسلم ذكرًا كان أم أنثى جمع الصور للذكرى - أعني صور ذوات أرواح من بني آدم وغيرهم - بل يجب إتلافها لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لعلي رضي الله عنه: **«لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»**، وثبت عنه ﷺ أنه نهى عن الصورة في البيت، ولما دخل الكعبة ﷺ يوم الفتح رأى في جدرانها صورًا فطلب ماء وثوبًا ثم مسحها، أما صور الجمادات كالجبل والشجر ونحو ذلك فلا بأس به.

٧ - حكم الرسم الكاريكاتوري:

س: يسأل القارئ عبد العزيز سالم الصيعري من الرياض عن حكم الرسم الكاريكاتوري والذي يشاهد في بعض الصحف والمجلات ويتضمن رسم أشخاص؟

☑ الرسم المذكور لا يجوز وهو من المنكرات الشائعة التي يجب تركها لعموم الأحاديث الصحيحة الدالة على تحريم تصوير كل ذي روح سواء كان ذلك بالكاميرا أو باليد أو بغيرهما.

ومن ذلك ما رواه البخاري في الصحيح عن أبي جحيفة ﷺ أن النبي ﷺ لعن آكل الربا وموكله، ولعن المصور، ومن ذلك أيضًا ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون»**، وقوله ﷺ: **«إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»**. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الثابتة في هذا الموضوع ولا يستثنى من ذلك إلا من تدعوه الضرورة إلى تصويره لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ** ﴾ (سورة الأنعام.١١٩)، أسأل الله أن يوفق المسلمين للتمسك بشريعة ربهم، والاعتصام بسنة نبيهم ﷺ، والحذر مما يخالف ذلك إنه خير مسئول.

٨ ـ التصوير في المناسبات:

س: هل يجوز لإنسان تصوير نفسه وإرسال الصورة إلى أهله في أوقات عيد ونحوها؟

☑ قد تكاثرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في النهي عن التصوير ولعن المصورين ووعيدهم بأنواع الوعيد، فلا يجوز للمسلم أن يصور نفسه ولا أن يصور غيره من ذوات الأرواح إلا عند الضرورة كالجواز وحفيظة النفوس ونحو ذلك.

نسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين، وأن يوفق ولاة الأمر للتمسك بشريعته والحذر مما خالفها إنه خير مسئول. والله الموفق.

٣ ـ الشبه الواردة على تحريم التصوير[1]:

يذهب بعض أدعياء العلم ممن تأثروا بالثقافة الغربية إلى إثارة بعض الشبه على تحريم التصوير، بقصد التزلف إلى الحضارة الغربية، والاندماج فيما خيِّل لهم أنه فنٌّ راق، وذوق سليم، أو بقصد التقرب إلى المترفين ومسايرتهم على أهوائهم؛ لينالوا بعض المناصب.

---

(١) «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» للشيخ محمد الصابوني (٢/ ٤١٧-٤٢٢).

الشبهة الأولى:

يزعمون أن ما ورد من نصوص في تحريم التصوير إنما هو إجراء مؤقت اقتضته ظروف الدعوة الإسلامية لمجابهة الشرك والوثنية، وأن الغاية هي قطع الطريق على الوثنية، فلما زال الخوف من عبادة الأوثان والأصنام زالت الحاجة إلى تحريم التصوير.

وللرد على هذه الشبهة سنكتفي بنقل كلام فضيلة الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ في دحض هذه الشبهة، حيث جاء في تعليقه على الحديث (٧١٦٦) من المسند ما نصه: «وكان من حجة أولئك... أن تأولوا النصوص بعلة لم يذكرها الشارع، ولم يجعلها مناط التحريم، هي ـ فيما بلغنا ـ أن التحريم إنما كان أول الأمر لقرب عهد الناس بالوثنية، أما الآن وقد مضى على ذلك دهر طويل فقد ذهبت علة التحريم، ولا يخشى على الناس أن يعودوا لعبادة الأوثان.

وقد نسي هؤلاء ما هو بين أيديهم من مظاهر الوثنية الحقة، بالتقرب إلى القبور وأصحابها، واللجوء إليها عند الكروب والشدائد، وأن الوثنية عادت إلى التغلغل في القلوب دون أن يشعر بها أصحابها.

وكان من أثر هذه الفتاوى الجاهلة أن ملئت بلادنا بمظاهر الوثنية الكاملة، فنصبت التماقيل، وملئت بها البلاد، تكريمًا لذكرى من نسبت إليه وتعظيمًا، ثم يقولون لنا: إنها لم يقصد بها التعظيم، ثم صنعت الدولة ـ وهي تزعم أنها إسلامية في أمة إسلامية ـ معهدًا للفنون الجميلة... معهدًا للفجور الكامل الواضح، يدخله الشبان الماجنون، من الذكور والإناث، يقفن عرايا، ويجلسن عرايا، ويضطجعن عرايا، وعلى كل وضع من الأوضاع الفاجرة، لا يسترون شيئًا، ثم يقولون لنا: هذا فن!!»[1].

---

(١) انظر: المسند للإمام أحمد، الحديث (٧١٦٦).

الشبهة الثانية:

يقولون: إن الأحاديث الدالة على التحريم، هي أحاديث آحاد ولا تفيد القطع، وإنه لا يمكن أن ننسب إلى الإسلام تحريم (فن) من الفنون ما لم يكن هناك نص قطعي بالحرمة.

■ **وللرد على هذه الشبهة نقول:**

هذا جهل فاضح بأحكام الشريعة الغراء، فإن كل ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو عمل، يجب الأخذ به سواء كان النقل بطريق التواتر، أو بطريق الآحاد، هذا متفق عليه بين العلماء، ومن المعلوم بالضرورة أن أكثر الأحكام الفقهية الشرعية إنما ثبتت بخبر الآحاد، فلو كانت أخبار الآحاد لا تفيد القطع ـ كما زعموا ـ لضاعت أكثر أحكام الشريعة، وهذا كلام لا يصدر عن فقيه عالم، إنما يصدر عن جاهل بأصول الشريعة الغراء، وطرق استنباط الأحكام.

ومن المفارقات العجيبة أن الذين يحتجون بأمثال هذه الحجج الواهية، يأخذون بأحاديث ـ لإثبات رأيهم ـ لا تصلح للاحتجاج لنكارتها، وضعف سندها، وجهل رواتها، ولكنها لما كانت موافقة لأهوائهم يتمسكون بها، ويجادلون بشأنها، شأن أهل الأهواء.

وقد رد الأصوليون وفي مقدمتهم الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ على هذه الشبهة ردًا شافيًا، وبيّنوا أن خبر الآحاد يلزم العمل به إذا ثبت، ولم يزل العلماء المسلمون يعملون بأخبار الآحاد ويحتجون بها؛ لأن في إبطالها إبطالاً لأكثر أحكام الشريعة.

ومن جهة ثانية فإن النصوص الواردة في تحريم التصوير بلغت حدّ التواتر، وتناقلها المسلمون جيلاً عن جيل، فلا مجال للمتشككين أن يدخلوا من هذا الباب، ونزيدك علمًا بأن الشعوب الإسلامية لم يوجد فيها تصوير أو نحت بقدر كبير، وأن الفنانين المسلمين انصرفوا عن التصوير، وصنع التماثيل، إلى استخدام النقش

الهندسي، والتزيين العربي، والتشكيل النباتي وغيرها... وكل ذلك بسبب ما يعلمون من تحريم الإسلام للتصوير، فلو لم يكن في اعتقادهم محرمًا لما تركوه وانصرفوا إلى غيره، ويكفي هذا الرد على أولئك الزاعمين.

الشبهة الثالثة:

يستشهدون على إباحة التصوير بآيات من القرآن الكريم، لا يصح الاحتجاج بها لأنها ليست من شريعتنا، وإنما هي من الشرائع السابقة المنسوخة بشريعة الإسلام، منها الآية الكريمة التي هي موضوع بحثنا وهي قوله تعالى: ﴿**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (سورة سبأ: ١٣).

فإن هذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على حل التصوير؛ لأنها إخبار عما كان يعمله الجن لسليمان عليه السلام، وليس فيها ما يدل على أن التماثيل كانت لذي روح، ومع ذلك فإنها شريعة سابقة، وقد نص العلماء على أن «شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم يرد ناسخ»، وقد ورد الناسخ في الشريعة الإسلامية فلا حجة فيها.

وهذه القاعدة متفق عليها بين علماء المسلمين، فالسجود بقصد التحية لغير الله تعالى كان جائزًا في شريعة يوسف عليه السلام، وقد حرمه شرعنا، فلا يصح الاحتجاج بما ذكره الله من سجود إخوة يوسف له على إباحة السجود لغير الله، وشريعتنا ناسخة لما قبلها من الشرائع وقد حرمت التماثيل فلا يصح الاحتجاج بهذه الآية الكريمة، والله أعلم.

حكمة التشريع:

جاءت الشريعة الإسلامية الغراء، والناس في وثنية غارقة، قد تدهورت أحوالهم، وانحطت أوضاعهم، حتى وصلوا إلى درجة عبادة الأوثان والأصنام، وقد كان حول الكعبة المعظمة ثلاثمائة وستون صنمًا بعدد أيام السنة، كلها آلهة تُعبد من

دون الله، فلمَّا فتح ﷺ مكة حطَّمها بنفسه فلم يبق لها أثرًا وهو يردد قوله تعالى: ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (سورة الإسراء: ٨١)[١].

وقد دخلت هذه الوثنية إلى العرب، عن طريق أهل الكتاب، وبسبب التماثيل والتصاوير، وانتشرت بينهم انتشار النار في الهشيم، حتى غدت الجزيرة العربية مهدًا للوثنية، ومركزًا لعبَّاد الأوثان والأصنام، فلما جاء الإسلام حرَّم الصور والتماثيل، وكل ما يدعو إلى الوثنية من قريب أو بعيد، وحمل حملة شعواء على المصورين، فمنع من تصوير كل ذي روح، حماية للعقيدة، وصيانة للأمة، وتطهيرًا للمجتمع من لوثة الشرك وعبادة الأوثان، وبذلك اقتلع الإسلام الوثنية من جذورها، وقضى على الشرك في مهده، وطهَّر الجزيرة من كل مظاهر الوثنية والإشراك.

وقد يقول قائل: إن الوثنية قد انقضى زمانها بالتقدم الفكري عند الإنسان، فلم يعد هناك من يعبد الأصنام والأوثان، فَلِمَ إذن تبقى حرمة التصوير؟!

والجواب: أن العقل البشري معرَّض للانتكاس في كل حين وزمان، ولا يستبعد أبدًا أن يؤدي نصب التماثيل في الشوارع العامة، وانتشار الصور في المجلات والبيوت إلى تعظيمها وعبادتها في المستقبل، كما فعل من سبقنا من الأمم، حيث كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح صوَّروه ونصبوا هذه الصور في أماكن بارزة ليتذكروا سيرته وأعماله، ثم جاء مَنْ بعدهم فعظَّموها، ثم جاء مَنْ بعدهم فعبدوها من دون الله.

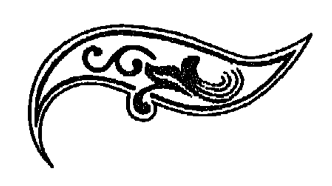
وإذا كنا نجد في هذا العصر بالذات من المتناقضات ما يطير له عقل الإنسان فَرَقًا، حيث طغت الرذائل على الفضائل، وتبدلت المفاهيم والقيم الأخلاقية، وأصبحت

---

(١) روى البخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: دخل النبي ﷺ يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾. انظر: «جمع الفوائد» (١٤٣/٢).

مظاهر الهمجيــة من التكشف والعري، والخلاعة والمجون، تعتــبر في هذا العصر من مظاهر الرقي والتقــدمية، فــأي إنسان لا يخاف على مســتقبل البــشرية وهو يرى هذه العجائب والغرائب، تتمثل لعينيه، والصور المضحكة المبكية!!

ثم إننا لا نزال نرى في هذا العصر الذي يسمــونه (عصر النور) من لا يزال يعبد البقر ويتبــرك بأرواثها، فكيف نطمئن على العقلية البشــرية من التردي نحو الهاوية؟! إن الذي يعبد البقر لا يســتبعد عليه أن يعبد الصور؟! لذلك فــإن التحريم شريعة الله وسيظل هذا التشريع فوق عقول البشر لأنه شرع الله ودينه الخالد.



الحديث التاسع

حادثة الإفك
وامتحان عسير للنبي والأمة

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجابُ فأنا أُحمَلُ في هَودَجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فَرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل[١] ودنونا من المدينة قافلين آذن[٢] ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش[٣].

فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقْدٌ لي من جَزْع[٤] أظفار[٥] قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه. وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلهنَّ اللحم، إنما يأكلن العُلْقة[٦] من الطعام. فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنتُ جاريةً حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيشُ،

---

(١) قفل: أي رجع.
(٢) آذن: أي أعلم.
(٣) لتقضي حاجتها منفردة.
(٤) جَزع: أي خرز.
(٥) أظفار: مدينة باليمن.
(٦) العُلقة: القليل.

فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب،

فأممت[١] منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدوني

فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسةٌ في منزل غلبتني عيني فنمت، وكان

صفوان بن المعطَّل السُلميُّ ثم الذَّكوانيُّ من وراء الجيش فأدلج[٢]، فأصبح عند

منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حينَ رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[٣] حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمةً ولا سمعت منه كلمةً غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتُها.

فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُوغرينَ[٤] في نحر الظهيرة[٥]، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفكَ عبدُ الله بن أبيٍّ بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمتُ شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَريبُني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر.

حتى خرجت بعدما نقهت[٦]، فخرجت معي أم مسطح قِبَل

المناصع[٧]، وهو متبَرَّزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل،

---

(١) فأممت: فقصدت.
(٢) أدلج: سار بالليل.
(٣) أي بقوله: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».
(٤) موغرين: نازلين.
(٥) نحو الظهيرة: شدة الحر.
(٦) أي أفاقت من المرض ولكن لم تصح.
(٧) أي جهة أرض خارج المدينة.

وذلك قبل أن تتخذ الكُنُف قريبًا من بيوتنا،

وأمرُنا أمرُ العرب الأول[(١)] في التبرز قبلَ الغائط، فكنا

نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح

ـ وهي ابنة أبي رُهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي

بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة ـ فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدرًا؟ قالت: أي هنتاه[(٢)] أولم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ تعني سلم، ثم قال: «كيف تيكم؟»، فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ ـ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ـ، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبويَّ، فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله، أولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع[(٣)]، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت

أبكي، فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث

الوحي[(٤)] يستأمرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على

رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه

من الود فقال: يا رسول الله، أهلك، وما نعلم إلا خيراً.

---

(١) أي لم يتخلقوا بأخلاق العجم.

(٢) حرف نداء للبعيد. وقد يستعمل للقريب.

(٣) أي لا ينقطع لي دمع.

(٤) أي استبطأ النبي عليه السلام نزوله.

وأما عليٌّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله،

لم يُضيِّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجاريةَ

تَصدُقْك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «أي بريرة هل رأيت من

شيء يريبك؟»، قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرًا أَغْمِصُهُ عليها[1] أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر[2] يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني[3] من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله وأنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربتُ عُنُقَه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته[4] الحمية - فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن

المنافقين، فتساور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول

الله ﷺ قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفِّضهم

حتى سكتوا وسكت.

---

(١) أي ما رأيت عليها أمرًا أعيبه عليها.
(٢) أي طلب من يعذره منه.
(٣) من يعذرني: من ينصفني.
(٤) احتملته: أغضبته.

قالت: فمكثتُ يومي ذلك لا يرقأ لي دمعٌ ولا

أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين

ويومًا لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالقٌ

كبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد، يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيُبَرِّؤكِ الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه» .

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي[1] حتى ما أحسُّ منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلتُ لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت: فقلتُ - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن -: إني والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقني. والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف، قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

---

(١) قلص دمعي: أي انقطع.

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت:

وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مُبرئي ببراءتي، ولكن

والله ما كنت أظن أن الله منزلٌ في شأني وحيًا يُتلى، ولشأني في

نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول

الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني الله بها.

قالت: فوالله ما رام[1] رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء[2]، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجُمان[3] من العرق وهو في يوم شات من ثِقَل القول الذي ينزل عليه.

قالت: فلما سُرِّيَ[4] عن رسول الله ﷺ عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: «يا عائشة، أما الله عزَّ وجلَّ فقد برأك، فقالت أمي: قومي إليه. قالت: فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمدُ إلا الله عزَّ وجلَّ. وأنزل الله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ... ﴾ العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره -: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال؛ فأنزل الله: ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن

---

(١) ما رام: أي ما فارق مجلسه.

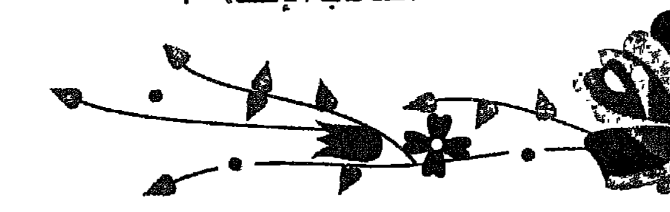
(٢) البُرحاء: شدة الحمى.

(٣) الجُمان: اللؤلؤ.

(٤) سُرِّيَ: أي كشف.

يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري، فقال: «يا زينب، ماذا علمت أو رأيت؟»، فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري [(١)]، ما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني [(٢)] من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع [(٣)]، وطفقت [(٤)] أختها حمنة تحارب لها [(٥)]، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك» [(٦)].



الدروس المستفادة:

١ - أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل:

قال صاحب الظلال: «هذا الحادث - حادثة الإفك - قد كلَّف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلامًا لا تطاق، وكلَّف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، وعلق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجه عائشة التي يحبها،

---

(١) فلا أنسب إليها ما لم أسمع ولا أبصر.

(٢) تساميني: تساويني.

(٣) أي حفظها ومنعها بالمحافظة على دينها ومجانبة ما تخشى سوء عاقبته.

(٤) طفقت: جعلت وشرعت.

(٥) تحارب لها: أي تجادل لها وتتعصب، وتحكي ما قاله أهل الإفك لتنخفض منزلة عائشة وتعلو مرتبة أختها زينب ﵂.

(٦) رواه البخاري «الفتح» (٨/ ٣٠٦)، ومسلم (شرح النووي١٧/ ١٠٢).

وقلب أبي بكر الصديق وزوجه، وقلب صفوان بن المعطَّل شهـرًا كاملاً، علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق.

ثم يقول رحـمه الله ـ: وإن الإنسان ليـقف متململاً أمام هذه الصورة الفظيـعة لتلك الفترة الأليمـة في حياة الرسول ﷺ، وأمام كل تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشـة زوجه المقربة، وهي فتاة صغيرة في نحو السـادسة عشرة، تلك السن المـليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة.

ويا لله لها وهي تفـاجأ بالنبـأ من أم مسطح وهي مهـدودة من المرض فتـعاودها الحمى، وهي تقول لأمها في أسى: «سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟» وفي رواية أخرى تـسأل: «وقد علـم بي أبي؟»، فتـجيب أمـها: نعم، فـتقـول: «ورسول الله ﷺ؟» فتجيبها أمها كذلك: نعم.

ويا لها ورسول الله ﷺ ـ نبيها الذي تؤمن بـه ورجلها الذي تحبه ـ يقول لها: **«أما بعد، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»** فتعلـم أنه شاك فيها لا يسـتيقن من طهارتهـا ولا يقضي في تهمتـها وربه لم يخبره بعـد، ولم يكشف له عن براءتها التي تعلمهـا ولكن لا تملك إثباتها، فـتمسي وتصبح وهي متهمة في ذلك القلب الكبير الذي أحبها وأحلَّها في سويدائه.

وها هو ذا أبو بكر الصديق ـ في وقـاره وحساسـيته وطيب نفسـه ـ يلذعه الألم وهو يُرمى في عرضه، في ابنته زوج محمد، صاحـبه الذي يحبه ويطمئن إليه، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل، لا يطلب دليلاً من خارجه، وإذا الألم يفيض على لسانه وهو الصابر المحتسب القوي على الألم فيقول: **«والله ما رُمينا بهذا في جاهلية، أفنرمى به في الإسلام؟»**.

وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة: «أجب عني رسول الله ﷺ»، قال في مرارة هامدة: «والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ».

وأم رومان ـ زوج الصديق رضي الله عنهما ـ وهي تتماسك أمام ابنتها المفجوعة في كل شيء، المريضة التي تبكي حتى تظن أن البكاء فالق كبدها، وعائشة تقول لها: «أجيبي عني رسول الله ﷺ»، فتقول كما قال زوجها من قبل: «والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ».

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل وهو يُرمى بخيانة نبيه في زوجه، وهو يُفاجأ بالاتهام الظالم وقلبه بريء من تصوره فيقول: «سبحانه الله! والله ما كشفتُ كنف أنثى قط».

ثم ها هو ذا رسول الله ﷺ، وهو رسول الله، يُرمى في بيته، في طهارة فراشه، في صيانة حرمته، يُرمى في كل شيء، حين يُرمى في عائشة رضي الله عنها، ويتحدث الناس في المدينة شهراً كاملاً، فلا يملك أن يضع لهذا كله حداً، وعندما تصل الآلام إلى ذروتها يتعطف عليه ربه فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك، ويرسم الطريق المستقيم للمجتمع المسلم في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم»[١].

٢ ـ سبب تأخر الوحي عن حادثة الإفك:

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فإن قيل: فما بال رسول الله ﷺ توقف في أمرها وسأل عنها وبحث واستشار وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده، وبما يليق به، وهلاَّ قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، كما قاله فضلاء الصحابة؟.

---

(١) «الظلال» (٤/ ٢٤٩٥).

فالجواب: أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببًا لها، وامتحانًا وابتلاء لرسوله ﷺ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقوامًا، ويضع بها آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدىً وإيمانًا، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله ﷺ الوحي شهرًا في شأنها، لا يوحى إليه في ذلك شيء لتتم حكمته التي قدرها وقضاها، وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا على العدل والصدق، وحُسن الظن بالله ورسوله، وأهل بيته، والصِّدِّيقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، ويُظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصِّدِّيقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها، والافتقار إلى الله والذل له، وحسن الظن له، والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النُّصرة والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفَّت هذا المقام حقه، لما قال لها أبواها: قُومي إليه، وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي.

وأيضًا فكان من حكمة حبس الوحي شهرًا، أن القضية مُحِّصَت وتمحَّضت، واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ، وأهل بيته، والصِّديق وأهله، وأصحابه المؤمنين، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع وألطفه، وسروا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك، لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها.

وأيضًا فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه،

والرد على أعدائه، وذمهم وعـيبهم بأمر لا يكون له فيـه عمل، ولا ينسب إليه، بل يكون هو وحده المتولي لذلك، الثائر لرسوله وأهل بيته.

وأيضًا فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى، والتي رميت زوجته، فلم يكن يليق به أن يشهـد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظن المقارب للـعلم ببراءتها، ولم يظن بها سوءًا قط، وحـاشاه، وحاشاها، ولذلك لما استـعذر من أهل الإفك، قال: **«من يَعْذِرُني في رجل بَلَغني أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»**، فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصـديقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لكمال صبـره وثباته، ورفقه، وحسن ظنه بربه، وثقته به، وفي مقام الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقه، حتى جاءه الوحي بما أقـر عينه، وسـر قلبه، وعظم قـدره، وظهر لأمتـه احتـفال ربه به، واعتناؤه بشأنه[1].

ويقول الدكتور محـمد سعيد البوطي ـ رحمه الله ـ: «وكـان من مقتضى الحكمة الإلهيـة في إبراز هذا الجانب الإنساني المجـرد فيه ﷺ، أن يتـأخر الوحي كل هذه الفترة التي تأخرها كي تتجلى للناس حقيقتان، كل منهما على غاية من الأهمية:

أما الحقيقة الأولى ـ فهي أن النبي ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشراً من الناس، فلا ينبغي لمن آمن بـه أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حـدود البشرية، فينسب إليه من الأمور أو التأثير في الأشياء ما لا يجوز إلا نسبته لله وحده.

أما الحقيقة الثانية ـ فهي أن الوحي الإلهي ليس شـعوراً نفسيًا ينبـثق من كيان النبي ﷺ كما أنه ليس شيئًا خاضعًا لإرادته أو تطلعه وأمنياته»[2].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٦١).

(٢) «فقه السيرة» (ص: ٢٢٣).

٣ ـ وقفات تربوية مع بعض الآيات:

(أ) قوله تعالى: ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (سورة النور: ١١)

قال الشيخ أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ: «... تهدئة من الله تعالى لأعصاب الجماعة الإسلامية وكشف لمكايد المنافقين، فإنهم وإن جاءوا على زعمهم، بحملة شعواء على نظام الجماعة وشخص الرسول ﷺ وأهل بيته، ولكنها ما حاقت إلا بهم وما سبب للمسلمين إلا خيرًا، فالمنافقون ـ كما بينا في المقدمة ـ ما كانوا أثاروا هذه الفتنة وأشعلوا جذوتها إلا لأن يهزموا المسلمين في ميدان تفوقهم، ميدان الأخلاق الذي كانوا لسبقهم فيه يهزمون أعداءهم في سائر ميادين الحياة، ولكن الله تعالى ما أخرج للمسلمين من هذه الفتنة إلا خيرًا، فقد ثبت من سيرة الرسول ﷺ وسلوك أهله في جانب وسلوك أبي بكر الصديق وأهله في الجانب الآخر وسلوك عامة المسلمين في الجانب الثالث في هذا الموقف الأليم مبلغ طهارة الجماعة من الدنس والسوء وما يحكمها من النظام والتماسك والعدالة الاجتماعية ورحبة القلوب وبراءة الصدور، فإن إشارة الرسول ﷺ كانت أكثر من الكافي في ضرب المسلمين أعناق من رموه في كل شيء من فراشه وعرضه وقلبه ورسالته، فها هو ذا يرمى في كل شيء من هذا ويتحدث به الناس شهرًا كاملاً في المدينة ولكنه يصبر عليه ويعاني شدائده، وعندما يأتيه الحكم الإلهي، لا يقيم الحد إلا على الأفراد الثلاثة من المسلمين، الذي كانت قد ثبتت عليهم جريمة القذف ولا يقيمه على المنافقين.

وها هو ذا مسطح بن أثاثة، ممن ينفق عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه من أقربائه الأدنين، يفجعه في فلذة كبده، ولكن هذا العبد الصالح لا يقطع عنه صلة القرابة ولا يمسك يده عن مساعدته، وها هنَّ أزواج النبي ﷺ لا تساهم إحداهن في تشويه سمعة ضرتها ولا تقول فيها إلا خيرًا، وإن تعجب فعجب أن حمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش تخوض في حديث الإفك مع الذين خاضوا فيه وسعوا

لتشويه سمعة عائشة ﷺ لا لشيء إلا حمية لأختها، أما زينب نفسها فلا تقول في عائشة إلا خيرًا، تقول عائشة ﷺ نفسها: «إن رسول الله ﷺ سأل زينب عن أمري وما رأت وما سمعت، فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما رأيت إلا خيرًا»، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بدينها وورعها وطفقت أختها حمنة تحارب فهلكت في من هلك».

وكانت عائشة ﷺ دومًا تبدي عطفها على حسان بن ثابت ولا تقابله إلا بالإحسان والتواضع، وتلقي له الوسادة عندما يدخل عليها، مع أن حسان كان من الذين أذاعوا حديث الإفك، ولما أن ذكرها بعض الناس مرة بما فعل قالت: «إنه كان يدافع عن رسول الله ﷺ»، وقالت: مرة أخرى: «ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة».

فهذه هي الدرجة السامية من طهارة الخلق والإخلاص، التي كان عليها الذين لهم صلة مباشرة بحادث الإفك، أما عامة المسلمين، فلك أن تقدر طهارة قلوبهم بحديث دار بين أبي أيوب الأنصاري وزوجته حول عائشة وما أذيع عنها من خبر الإفك: قال أبو أيوب الأنصاري لأم أيوب: «ألا ترين ما يقال عن عائشة؟ قالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءًا؟ قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ. فعائشة خير مني، وصفوان خير منك».

وقد روي هذا الحديث بين أبي أيوب الأنصاري وزوجته ﷺ بالعكس وفيه أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: «يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ﷺ؟» قال: «نعم. وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟» قالت: «لا، والله ما كنت لأفعله». قال: «ولو كنت مكان صفوان، ما كنت أظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءًا، فعائشة خير منك وصفوان خير مني».

فهكذا ما ظهرت النتيجة إلا على العكس مما قصده المنافقون وهي ما زادت المسلمين إلا تفوقًا في أخلاقهم.

وهناك ناحية أخرى للخير في هذا الحاديث، هي أنه سبب زيادة عظيمة في قوانين الإسلام وأحكامه وقواعده للحياة الاجتماعية، وقد تلقى فيه المسلمون من الله تعالى تعاليم إذا عملوا بها سلم مجتمعهم من نشوء المنكرات والفواحش، ومن السهل تداركها إذا نشأت.

ومن نواحي الخير في هذا الحادث، على ما تقدم، أن المسلمين جميعًا علموا به أحسن العلم أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب وأنه لا يعلم إلا ما يخبره به الله سبحانه وتعالى، وأن علمه لا يفوق بعد ذلك علم عامة البشر، فقد ظل إلى شهر كامل يعاني الألم وفجيعة القلب في أمر عائشة، فيسأل فيها خادم بيتها تارة وعليًا أخرى وأسامة بن زيد ثالثة وأزواجه رابعة، وأخيرًا يذهب إلى عائشة نفسها ولا يقول لها إلا: «إن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه» فلو أنه ﷺ كان يعلم الغيب، فلماذا كان يعاني هذا الألم والقلق والأرق الشديد المديد؟! ولماذا يسأل في عائشة غيره ويلقنها التوبة؟! ولكن لما نزل الوحي وأحاط بحقيقة الواقع، علم ما لم يكن يعلم هو ولا غيره من البشر طول شهر كامل، فهكذا أراد الله تعالى أن ينقذ المسلمين بالتجربة والمشاهدة المباشرة من الغلو في شخص مقتداهم ومرشدهم ﷺ، وليس من البعيد أن يكون هذا من المصالح التي لأجلها حبس الله سبحانه وتعالى وحيه عن رسوله إلى شهر كامل، ولو أنه أنزل عليه الوحي يوم وقع هذا الحادث، لما رجع على المسلمين بهذه الفائدة العظيمة»[1].

---

(١) «تفسير سورة النور» (ص١٢٣-١٢٦).

وقال صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ: «خير ـ فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته، وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله، ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة ـ بهذه المناسبة ـ عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم»[1].

(ب) قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ (سورة النور: ١٢):

قال صاحب الظلال: «نعم كان هذا هو الأولى: أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في هذه الحمأة، وامرأة نبيهم الطاهرة، وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم، فظن الخير بهما أولى، فإنَّ ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله ﷺ ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلا خيراً.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ بعد ذكره لرواية أبي أيوب الأنصاري: هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور، خطوة الدليل الباطني الوجداني.

فأما الخطوة الثانية فهي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي **﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾** (سورة النور: ١٣).

هاتان الخطوتان: خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير.

وخطوة التثبت بالبينة والدليل.

غفل عنهما المؤمنون في حادث الإفك، وتركوا الخائضين يخوضون في عرض رسول الله ﷺ وهو أمر عظيم، لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم، فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبدًا بعد هذا الدرس العظيم»[2].

---

(١) «الظلال» بتصرف (٤/ ٢٥٠٠).

(٢) «الظلال» باختصار (٤/ ١ ٢٥).

ويقـول الشيخ أبو الأعلى المودودي ـ رحـمـه الله ـ: «لسائل أن يسـأل في هذا المقام: إن الأمـر إذا كان هكذا، فلماذا لم يكذبه الرسـول ﷺ وأبو بكر الصديق في أول وهلة من سـماعهـما له؟ ولماذا اهتما له الاهتمـام المروي عنهمـا في كتب الحديث والسيرة؟

فالجواب: أن ليست منزلة الزوج في أمر زوجتـه ولا منزلة الوالد في أمر بنته مثل منزلة غيرهما في الناس، لاشك أن الزوج هو أعلم الناس بأحـوال زوجته وأخلاقها، ولا يمكن أن يظن زوج صحـيح العقل سـوءًا بزوجته المؤمنـة الصالحة لمجـرد أقاويل الناس فيها واتهاماتهم لها، ولكن المسكين على رغم هذا إذا اتهمت زوجته فعلاً يكون في مأزق شديد؛ لأنه إذا كذب ببهتـان الناس ما أمسـكوا ألسنتهم، بل لابد أن يقولوا ـ فوق ذلك ـ إن الزوجة قـد سحرت عقل زوجـها وسترته بغطاء من السـفه والبله، فتفعل ما تشاء ومع ذلك يظنها زوجها عفيفة لم تدنس ذيلها بالفاحشة، وفي مثل هذا المأزق الشديد يكون الوالدان.

فمع أنهما يكونان على يقين تـام من عفاف ابنتهما ولكنهما إذا قـالا شيئًا ردًا لما يوجه إليها من الأقاويل الكاذبة والاتهامات الملفقة، ما جاءوا بشيء يبرئها، فإنها لابد أن يقول القائلون: هل يجرى من الوالدين شيء غير الدفاع عـن ابنتهما؟ فهذا ما كان يلذع رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق وزوجه أم رومان ويمنعـهـم جميعًا أن يكذبوا بكلام المفترين علنًا، وإلا فـما كان يساورهم أدنى شك في عفاف عـائشة وبراءتها مما ترمى به، بل قال رسول الله ﷺ يومًـا وهو يخطب الناس في المسجد: «**أيها الناس مـا بال رجال يؤذونني في أهلي ويقـولون عليهم غيـر الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيـرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي**» كما تقدم في رواية عائشة رضي الله عنها في المقدمة»[1].

(١) «تفسير سورة النور» (ص: ١٢٩، ١٣٠).

(جـ) قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (سورة النور: ١٥)

يقول صاحب الظلال: «لسان يتلقى عن لسان بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملأه الرؤوس ولا تتدبره القلوب.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾: بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم، إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه، قبل أن تستقر في المدارك وقبل أن تتلقاها العقول.

﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾: أن تقذفوا عرض رسول الله ﷺ وأن تَدَعوا الألم يعصر قلبه وقلب أزواجه وأهله، وأن تلوثوا بيت الصديق الذي لم يرم في الجاهلية، وأن تتهموا صحابيًا مجاهدًا في سبيل الله، وأن تمسوا عصمة رسول الله ﷺ وصلته بربه ورعاية الله له»[1].

٤ ـ آداب شرعية غائبة:

لقد أدب الله تعالى المؤمنين ببعض الآداب الشرعية في مثل أحوال انتشار الشائعات والطعن في المؤمنين والمؤمنات نجدها غائبة اليوم عندكثير من المسلمين للأسف، ولعل أهم هذه الآداب هي:

(أولاً ـ على المؤمن أن يظن الخير بإخوانه المؤمنين وأخواته المؤمنات، فإذا نقل له عن أخيه المؤمن أو عن أخته المؤمنة خبرٌ يشين ويُحزن، وخبر يحمل طعنًا في أعراض إخوانه المؤمنين والمؤمنات، فعليه حينئذ أن يُكذِّب هذا الخبر الذي يحمل طعونًا في المؤمنين والمؤمنات وفي أعراضهم ويقول بملء فيه عن هذا الخبر الذي لم تصاحبه البينات: هذا إفك مبين، هذا كذب واضح وظاهر، وذلك تبرئة لساحة إخوانه

---

(١) «الظلال» (٤/ ٢٥٠٢).

المؤمنين وأخـواته المؤمنات وحمـاية لأعراضهم وصـونًا لكرامتـهم، وإلى هذا الأدب أرشدنا ربنا سبحـانه وتعالى بقوله: ﴿ **لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ** ﴾ (سورة النور:١٢)، وقـد ورد عن بعض الصحـابة ﷺ أنهم تصرفـا مثل هذا التصرف من الظن الحـسن بإخوانهم المؤمنين والمؤمنات، فقـد أخرج الطبري وغيره من طريق محمد بن إسحاق عن أبيه عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب خالد بن زيد قـالت له امرأته أم أيوب: أما تسـمع ما يقول الناس في عـائشة؟ قال: بلى، وذلك الـكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟! قـالت: لا والله ما كنت لأفعله، قـال: فعائشـة والله خير منك، قـال: فلما نزل القرآن ذكـر الله من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ** ﴾، وذلك حسان وأصحابه الذين قالـوا ما قالوا، ثم قال: ﴿ **لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ الآية، أي كما قال أبو أيوب وصاحبته.

ثانيًا ـ على أهل الإيمان أن يتثـبتوا في أمورهم بالبينات والدلـيل والبرهان، فلا يترك أهل الكذب والافـتراء يخوضون في أعراض المـؤمنين والمؤمنات وينتهكوها، بل يطلب من هؤلاء البينات والدلائل والبـراهين على صدق مدعاهم، فـإذا أتوا بالبينات والدلائل والبراهين أخـذ بها وأقيم الحـد على مسـتحقه، وإذا لـم يأت هؤلاء الظلمة بالبينات فحينئـذ يحكم عليهم بما يستحقونه شرعًا ودينًا من إقـامة حدود الله عليهم، ووصفهم بالكذب والفسق.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴾ (سورة النور:١٣).

فقـد تقوى الظنون وتكثر الوسـاوس والهواجس لكثـرة كلام الناس وليس هناك بينات، فإذا تدافعت عـليك الظنون وكثرت عليك الوساوس فعليـك حينئذ أن تطالب بالبينات الظاهرة، ألا وهي الشهود ها هنا، فإذا لم يأت القـذفة بالشهود فأولئك عند الله هم الكاذبون.

ثالثًا ـ على المؤمن أن ينظر في حجم الكلام وفي أبعاده، وبمن يتعلق هذا الكلام وذاك الحديث، فليس كل الكلام يتكلم به، وليس كل حديث يخاض فيه، وعرض المسلم ليس كعرض الكافر، والمؤمن الصالح أعظم حرمة من الفاسق الكذاب.

فإذا اتهم رجل من أهل الفضل والصلاح وطُعن في عرضه، فاتهامه والطعن في عرضه أعظم جرمًا بلاشك من الطعن في عرض غيره.

فلا تسمح لشخص يطعن في أهل الصلاح أمامك، لا تسمح لشخص بالخوض في أعراضهم وأنت ساكت، بل ذُبَّ عن أخيك المسلم وعن عرضه وعن حماه! والزم الأدب ولا تخض مع الخائضين ولا تهلك مع الهالكين، قال الله سبحانه: ﴿**وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة النور: ١٦).

وصدقت يا رب فيما قلت، فحقًا ليس لأهل الإيمان أن يخوضوا في مثل هذه القاذورات ولا في مثل هذه الطعون ولا في تلك البذاءات.

ليس لأهل الإيمان أن يتناولوا الأعراض، وأعراض من؟! أعراض بيت النبوة، أشرف بيت على وجه الأرض!!

فابتداءً ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش ولا بالبذيء.

فهل يليق بالمؤمن أن يطعن في بيت نبيه ﷺ؟! وهل يليق به أن يتوارد على ذهنه أو على قلبه سوء في شأن بيت نبيه ﷺ وبيت أزواجه اللواتي هن أمهات المؤمنين؟!!

فحقًا ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم!!)[1].

---

(١) تفسير سورة النور في سؤال وجواب، للشيخ مصطفى العدوي، (ص: ١١٤-١١٦).

٥ـ نبذة مختصرة في أحكام القذف[1]:

لما كانت حادثة الإفك مبنية على قذف عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بالزنا، فلعل مما يحسن أن ينبه إليه هنا جملة مختصرة من أحكام القذف، خصوصًا وأن البعض من الناس يجهل بعض هذه الأحكام، أو كثيرًا منها.

تعريفه: فالقذف هو: الرمي بزنا أو لواط.

حُكمُه: القذف محرم بإجماع الأمة.

الدليل: الأصل في تحريم القذف الكتاب والسنة.

أما الكتاب: فقول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (سورة النور: ٤).

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (سورة النور ٢٣).

أما السنة: فقول النبي ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: «وما هن يا رسول الله؟»، قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتَوَلّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».** (متفق عليه)[2].

---

(١) ينظر: «المغني» (١٢/ ٣٨٣-٤٠٩)، «الروض المربع» (ص: ٤٦٥-٤٦٦) والحاشية، «طهارة بيت النبوة، وغيرة الله لعرض نبيه ﷺ» خالد بن عبد الرحمن الشايع، (ص: ٤٢-٤٥).

(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٧٧)، صحيح مسلم (١/ ٩٢).

والمحصنات: هن العفائف.

وقد أجمع العلمـاء على وجوب إقامة الحدِّ على من قـذف المحصن أو المحصنة، إذا كان مكلفًا.

شـروط الإحصـان:

ذكر أهل العلم شروطًا للإحصان الذي يجب الحد بقذف صاحبه، وأنها خمسة:

الأول ـ العقـل.

الثاني ـ الحريـة.

الثالث ـ الإسـلام.

الرابع ـ العفـة عن الزنى.

الخامس ـ كون المقذوف كـبيرًا يجامع مثله، وحـدوا أدنى ذلك بأن يكون للغلام عشر سنين، وللبنت تسع سنين.

المعتبر في إقامة الحد:

المراد بهـذا العنوان إذا وقع القذف بشـروطه، فهل يقـام مبـاشرة أم هنـاك أمور معتبرة؟ والجواب أن هناك أمرين معتبرين، فإذا تحققا أقيم الحد، وهما:

الأمر الأول ـ مطالبة المقذوف، لأن حَـدَّ القذف حقٌّ له، فلا يُستـوفى قبل طلبه، ولو عفى عن الحد سقط.

الأمر الثاني ـ أن لا يأتي القاذف ببـينة، فإذا أتى بالبينة لم يقم عليـه الحد، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ** ﴾ (سورة النور: ٤)، فشـرط في جلدهم عدم البـينة، والمعنى أنه إذا أتى بالبينة لا يجـلد، ويتبع ذلك أن لا يُقِـرَّ المقذوف بما قذف به؛ لأن الإقرار له حكم البينة، بل هو أبلغ.

وإذا كان القاذف زوجًا اعتبر أمر ثالث وهو:

أن يمتنع عن اللعان، أما إذا لاعن زوجته فإن الحد يسقط عنه، ويُفَرَّق بينهما إلى الأبد كما قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِين يرْمُون أزْوَاجَهُمْ ولَمْ يكُن لَّهمْ شُهَدَاءُ إلاَّ أنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أحدهِمْ أَرْبعُ شهادات بالله إنَهُ لمن الصَادقين ﴿٦﴾ والْخامسَةُ أنَّ لَعْنت اللَّه علَيْه إن كَان منَ الْكَاذبِين ﴿٧﴾ ويَدْرأُ عنْها العذابَ أن تشْهد أرْبع شهادات بالله إنَّهُ لمنَ الْكَاذبينَ ﴿٨﴾ والخَامسة أنَّ غضَب اللَّه علَيْهَا إن كان من الصَّادقين ﴾ (سورة النور: ٦-٩).

مقدار الحد:

أجمع أهل العلم أن حد القاذف الحر ثمانون جلدة، لقوله تعالى: ﴿ والَّذِينَ يرْمُونَ الْمُحْصَنَات ثُمَّ لمْ يأْتُوا بأرْبَعة شُهداء فاجْلدُوهُمْ ثَمَانينَ جَلْدَةً ﴾ (سورة النور: ٤).

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن حد القاذف إذا كان عبدًا وقذف حرًا محصنًا هو: أربعون جلدة على النصف من الحر، كحد الزنى، وقد نقل إجماع الصحابة على هذا.

ألفاظ القذف:

تنقسم ألفاظ القذف إلى قسمين:

ألفاظ التصريح: وذلك بأن يقول القاذف: يا زاني أو يا زانية، أو يا لوطي، أو قد زنيت، ونحو هذه الألفاظ المشعرة بالتصريح في القذف، فهذا القسم هو الذي يعد به الشخص قاذفًا، سواء صدر من رجل أو امرأة، أو وُجِّه إلى رجل أو امرأة.

ألفاظ الكناية: قد يبلغ سوء الخُلُق وفحش الكلام ببعض الناس مبلغًا يجعله يتلفظ بكلمات لا يزنها، ومن هذه الألفاظ ما يكون فيه كناية عن القذف، ومن أمثلة هذه الألفاظ، أن يقول: يا فاجرة، يا خبيثة، أو أفسدت فراش زوجك، ونحو هذه الألفاظ، فيستفهم المتكلم بها: ماذا أردت؟ فإن قال: إنه يريد وقوع الفاحشة ولم يرد

غيـرها كان ذلك صريحًـا بالقذف، فتُـجرى عليـه أحكامه، وإن قال: إنه لا يقـصد بالفاحشة، بل يريد عَيْبَ من وصفه بتلك الألفاظ فإنه يعزر.

مسألة:

نص أهل العلم على أن قـذف النبي ﷺ، أو أُمَّه ردة عن الإسـلام، وخروج عن الملة، وأن حـد من قذفـه ﷺ أو قذف أمه هـو القتل، سـواء كان مسلـمًا أو كافرًا، أما توبته فبينه وبين الله عزَّ وجلَّ، والله يقبل التوبة ويغفر الذنوب جميعها لمن يشاء من عباده.

حكمة التشريع[1]:

يعتبر القذف جريمة من الجرائم الشنيعـة التي حاربها الإسلام حربًا لا هوادة فيها، فـإن اتهام البـريئين، والوقوع في أعـراض الناس، والخـوض في المحصنات الحـرائر العفـيفات يجعل المجـال فسيـحًا لكل من شاء أن يقذف بريئـة أو بريئًا بتلك التهـمة النكراء، فتصـبح أعراض الأمة مجرحة وسـمعتها ملوثة، وإذا كل فرد منهـا متهم أو مهدد بالاتهام، وإذا كل زوج فيها شاك في زوجه وأهله وولده.

وجريمة القذف والاتهام للمحصنات تولِّد أخطارًا جسيمة في المجتمع، فكم من فتاة عفيفة شريفة لاقت حتفها لكلمة قالها قائل، فصدقها فاجر، فوصل خبرها إلى الناس ولاكتـها الألسن فكان أن أقدم أقـرباؤها وذووها على قتلها لغـسل العار، ثم ظهرت حصـانتها وعفتـها عن طريق الكشف الطبي ولكن بعد أن حـصل ما حصل وفات الأوان.

(١) «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» للصابوني (٢/ ٧٥، ٧٦).

لذلك وصيانة للأعراض من التهجم وحماية لأصحابها من إهدار الكرامة، قطع الإسلام ألسنة السوء، وسد الباب على الذين يلتمسون للبرآء العيب، فمنه ضعاف النفوس من أن يجرحوا مشاعر الناس، ويلغوا في أعراضهم، وشدد في عقوبة القذف فجعلها قريبة من عقوبة الزنى ثمانين جلدة مع إسقاط الشهادة، والوصف بالفسق.

والعقوبة الأولى جسدية تنال البدن والجسد، والثانية أدبية تتعلق بالناحية المعنوية بإهدار كرامته وإسقاط اعتباره، فكأنه ليْس بإنسان لأنه لا يوثق بكلامه ولا يقبل قوله عند الناس، والثالثة دينية حيث إنه فاسق خارج عن طاعة الله، وكفى بذلك عقوبة لذوي النفوس المريضة، والضمائر الميتة.

وقد اعتبر الإسلام قذف المحصنات من الكبائر الموجبة لسخط الله وعذابه، وأوعد المرتكبين لهذا المنكر بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة فقال جلّ ثناؤه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة النور:٢٣)، وجعل الولوغ في أعراض الناس ضربًا من إشاعة الفاحشة يستحق فاعله العذاب الشديد كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾ (سورة النور:١٩)، وقد عدَّها ﷺ من الكبائر المهلكات، فقال ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: «وما هن يا رسول الله؟»، قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»**[1].

وغرض الإسلام من هذه العقوبة صيانة الأعراض، وحفظ كرامة الأمة، وتطهير المجتمع من مقالة السوء لتظل الأسرة المسلمة موفورة الكرامة، مصونة الجناب، بعيدة عن ألسنة السفهاء، وبهتان المغرضين.

---

(١) متفق عليه.

٦ـ مواقف بعض الصحابة من حادثة الإفك[١]:

■ موقف الصديق أبي بكر:

لم يحفظ عن أبـي بكر ﷺ من شيء في أثناء إشاعة الإفـك غير مـا أجاب به عائشــة ﷺ لما قالت له: أجب عني رسول الله ﷺ، فقـال لها: «**والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ**».

غير أنه قد وَضَحَ ذهوله العظيم من هذه النازلة الكبيـرة، وشفقته على ابنته التي ما عرف عنها إلا كل خير، فقـد ربَّاها تحت عينه، وفي كنفه ترعرعت، إنَّ قلبه يكاد يتفطر لحـال ابنتـه التي أعياها الهم وأنهكها المرض.

وقد ورد عنه قوله ﷺ: «**والله ما رُمينا بهذا في جاهلية، أفنرمى به في الإسلام؟!**»، ولعل السبب في عدم حفظ الشيء الكثير عن الصديق ﷺ في حادثة الإفك، مع أن القضـية متـصلة ببيتـه مباشرة، لعـل السبب في ذلك هو ما كـان عليه ﷺ من تمام المتابعة للنبي ﷺ والائتساء به، فهو يعلم يقينًا أن النبي ﷺ أولى الناس بالفصل في هذه القضية وبيان حقيقة ما يشاع، لكنه لما رأى المصطفى ﷺ لم يوح إليه شيء في شأن تلك القضية، لَزِمَ جانب الصبر والتسليم لله عزَّ وجلَّ.

ومما يوضح هذا الأمـر لما نزلت الآيات ببراءة عـائشة ﷺ وكان ممـن خاض في الإفك مسطح بن أثاثـة ﷺ، وكان قريبًـا لأبي بكر، وكان مسطح فـقيرًا من فـقراء المهاجرين ينفق عليه أبو بكر، فـحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه وأن يقطع عنه ما كان يعطيه، فنزلت الآيات الحاثـة له على المضي في أعمال الخير من النفـقة على الأقارب وغيـرهم وأن يعفو المرء ويصفح إذ قـال تعالى: ﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (سورة النور: ٢٢).

---

(١) «طهارة بيت النبوة وغيرة الله لعرض نبيه ﷺ»، خالد بن عبد الرحمن الشايع، (ص: ٥٩-٦٣).

■موقف علي بن أبي طالب:

جاء في سياق حديث عائشة في سردها لحادثة الإفك ـ جاء قولها ـ إن النبي ﷺ دعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد لما استلبث الوحي وأبطأ عليه، وذلك ليستشيرهما في فراق أهله، ثم بينت ما قاله عليٌّ رضي الله عنه حيث قال للنبي ﷺ: «لم يُضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك».

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «الذي قاله علي رضي الله عنه هو الصواب في حقه ﷺ؛ لأنه رآه مصلحة ونصيحة للنبي ﷺ في اعتقاده، ولم يكن ذلك في نفس الأمر؛ لأنه رأى انزعاج النبي ﷺ بهذا الأمر وقلقه، فأراد راحة خاطره، وكان ذلك أهم من غيره» اهـ[1].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ولما استشار النبي ﷺ أصحابه في فراق أهله، فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها ويأخذ غيرها، تلويحًا لا تصريحًا، لأنه لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه، أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين، ليتخلَّص رسول الله ﷺ من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء»[2].

وقال أبو محمد بن أبي جمرة ـ رحمه الله ـ: «لم يجزم علي بفراقها؛ لأنه عقب ذلك بقوله: «وسل الجارية تصدقك»، ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ، فكأنه قال: إن أردت تعجيل الراحة ففارقها، وإن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها؛ لأنه كان يتحقق أن بريرة لا تخبره إلا بما علمته، وهي لم تعلم عن عائشة إلا البراءة المحضة»[3].

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم.

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٢٦٠).

(٣) «بهجة النفوس» لابن أبي جمرة الأندلسي، دار الجيل.

وهذا الذي ذكره ابن أبي جمرة في غاية الحسن فهو يبين حقيقة موقف علي رضي الله عنه من جهة كونه مستشاراً في فراقه صلى الله عليه وسلم لأهله، أما من جهة حقيقة «الإفك» فهو رضي الله عنه من أولى الناس في التزام ما أمر الله به المؤمنين: ﴿**وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة النور: ١٦). وما الظن بسادات الصحابة إلا أن يقولوا هذا.

■ ***موقف أسامة بن زيد:***

تقدمت الإشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم استشار عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد في فراق أهله، وكانت استشارته صلى الله عليه وسلم لهما بالذات لمكانتهما منه، فعليٌّ ابن عمه وظهيره وسنده، وأسامه حبُّه وابنُ حبِّه.

وقد بينت عائشة رضي الله عنها موقف أسامة حيث قال: «**يا رسول الله، هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً**».

ومن منطلق تأثر عائشة رضي الله عنها وكونها المعنية بتلك الحادثة فإنها لم تُشد بموقف علي رضي الله عنه، بينما أشادت بموقف أسامة وأظهرته فهي تقول: «وأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه من الود».

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأسامة لما علم حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ـ لأبيها، وعلم من عفتها وبراءتها وحصانتها وديانتها ما هي فوق ذلك وأعظم منه، وعرف من كرامة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ربه ومنزلته عنده ودفاعه عنه، أنه لا يجعل ربة بيته، وحبيبته من النساء، وبنت صديقه، وبالمنزلة التي أنزلها بها أرباب الإفك، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم عل ربه وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيًا، وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة وهي تحت رسوله»[1].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٦٠).

■ **موقف أبي أيوب الأنصاري وزوجته:**

من المواقف الطيبة التي وقفها المؤمنون من حادثة الإفك موقف أبي أيوب الأنصاري وزوجه، حيث استعظما الإفك ونفرت منه نفوسهما.

فقد قالت أم أيوب لأبي أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما تقول الناس في عائشة ﵂؟ قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة خير منك.

وقد أنصفتهما عائشة ﵂ وأشادت بموقفهما النزيه الشريف من هذه الفرية.

■ **موقف أم رومان، وهي أم عائشة:**

لاريب أن الوالدين هما أشد الناس تأثرًا بما يصيب أبناءهما، ولذلك فإن أم رومان قد آلمها ما قيل من الإفك في ابنتها، وشاركتها همها وغمها الذي نزل بها، ولم يكن لأم رومان من سبيل إلا أن تخفف عن ابنتها شيئًا مما نزل بها، وأعلمتها أن المرأة إذا كان لها ضرائر فإنهن يسعين للنيل منها، خاصة إذا كانت حسنة جميلة، وقد قالت أم رومان هذا الكلام لابنتها لتخفف عنها ولتتأسى بمثيلاتها أيضًا.

■ **موقف بريرة:**

يظهر موقف بريرة من خلال معرفة ما قالته لما استدعاها النبي ﷺ وسألها عن حال عائشة ﵂، فبالغت في الثناء على عائشة، وأوضحت ما كانت عليه عائشة من الطهر والنقاء، وأنها من الغافلات المؤمنات.

يتضح هذا من قولها لما أجابت: والذي بعثك بالحق إنْ رأيت عليها أمرًا قط أعيبه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، وقولها: «والله لعائشة أطيب من الذهب».

الحديث العاشر
التوازن في علاقة الزوج مع الضرائر

عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة إن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير[١]، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: «لا بل شربت عسلاً عند زينب بن جحش ولن أعود».

وفي رواية: «وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً»، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ...﴾، وفي رواية: قالت سودة: أكلت مغافير؟ قال: «لا»، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل»، فقالت: جرست[٢] نحله العُرْفُط، فحرّم العسل، فنزلت[٣].



الدروس المستفادة:

١ - *قال السيوطي في الإكليل:*

استدل بها على أن من حرم على نفسه أمة أو طعامًا أو زوجة لم تحرم عليه، وتلزمه كفارة يمين.

---

(١) مغافير: جمع مغفور: صمغ حلو له رائحة كريهة ينضجه شجر يقال له: العُرْفُط.

(٢) جرست: أي أكلت.

(٣) رواه البخاري برقم (٤٩١١)، مسلم في «الطلاق» رقم (٢٠).

٢ ـ قال تقي الدين ابن تيمية في فتاويه:

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ (سورة التحريم:٢) نص عام في كل يمين عليه، وتلزمه كفارة يمين.

وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة، بعد تقدم الخطاب بصيغة الإفراد للنبي ﷺ، مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى، فلو فُرض يمين واحدة ليس لها تحلة، لكان مخالفًا للآية.

كيف وهذا عام لم تخص فيه صورة واحدة، لا بنص ولا بإجماع، بل هو عام عمومًا معنويًا، مع عمومه اللفظي؟ فإن اليمين معقود يوجب منع المكلف من الفعل، فشرع النحلة لهذه العقدة مناسب لما فيه من التخفيف والتوسعة.

٣ ـ تفسير أول آيات التحريم (١):

■ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة التحريم:١):

قال القاسمي ـ رحمه الله ـ: قال المهايمي: ناداه ليقبل إليه بالكلية، ويدبر عن كل ما سواه من الأزواج وغيرهن، وعبَّر عنه بالمبهم إشعارًا منه بأنه من غاية عظمته، بحيث لا يعلم كنهه، وأتى بلفظ﴿النَّبِيُّ﴾ إشعارًا بأنه الذي نبىء بأسرار التحليل والتحريم الإلهي.

والمراد بتحريمه ما أحلَّ له، امتناعه منه، وحظره إياه على نفسه، وهذا المقدار مباح، ليس في ارتكابه جناح.

---

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٩/ ٢٦٦-٢٧٧)، «تفسير القرآن العظيم لابن كثير» (٨/ ١٥٨-١٦٦) تحقيق سامي السلامة، تكملة «أضواء البيان» للشنقيطي (٨/ ٣٧٣-٣٧٨)، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ـ المجلد التاسع، «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي.

وإنما قيل له: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ رفقًا به وشفقة عليه، وتنويهًا لقدره ولمنصبه ﷺ، أن يراعي مرضات أزواجه بما يشق عليه.

قال القرطبي - رحمه الله -: «أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة لما خلا النبي ﷺ في بيتها بجاريته[1]، ذكره الثعلبي، وعلى هذا فكأنه قال: لا يحرم عليك ما حرمته على نفسك ولكن عليك كفارة يمين، وإن كان في تحريم العسل والجارية أيضًا، فكأنه قال: لم يحرم عليك ما حرمته، ولكن ضممت إلى التحريم يمينًا فكفِّر عن اليمين، وهذا صحيح، فإن النبي ﷺ حرم ثم حلف، كما ذكره الدارقطني.

وذكر البخاري معناه في قصة العسل عن عبيد بن عمير عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عند زينب بنت جحش عسلاً ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل: أكلت مغافير؟ إني لأجد منك ريح مغافير! قال: **«لا ولكن شربت عسلاً ولن أعود له وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً»**[2] يبتغي مرضات أزواجه، فيعني بقوله: **«ولن أعود له»** على جهة التحريم. وبقوله: **«حلفت»** أي بالله، بدليل أن الله تعالى أنزل عليه عند ذلك معاتبته على ذلك، وحوالته على كفارة اليمين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ يعني العسل المحرم بقوله: **«لن أعود له»** ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ أي تفعل ذلك طلبًا لرضاهن. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفور لما أوجب المعاتبة، رحيم برفع المؤاخذة، وقد قيل: إن ذلك

---

(١) هذا الأثر أخرجه الدارقطني في سننه (٤/ ٤١، ٤٢) في الطلاق رقم (١٢٢) بسند واه. فيه عبد الله بن شبيب، وهو ذاهب الحديث. وقد أشار إلى هذا الأثر الحافظ في الفتح (٨/ ٦٥٧) من طرق. فانظره هناك رحمك الله تعالى.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٩١٢) باب (١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية، وأطرافه في (٥٢١٦)، (٥٢٦٧)، (٥٤٣١)، (٥٥٩٩)، (٥٦١٤)، (٥٦٨٢)، (٦٦٩١)، (٦٩٧٢).

كان ذنبًا من الصغائر. والصحيح أنه معاتبة على ترك الأولى، وأنه لم تكن له صغيرة ولا كبيرة»[١].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: «هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ حين حرَّم على نفسه سريته (مارية)، أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته في قصة معروفة.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال ـ رحمه الله ـ: «هذاتصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه هذا اللوم ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سببًا لشرع حكم عام لجميع الأمة.

▪ وقال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة التحريم: ٢):

قال القاسمي: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: شرع تحليلها ـ وهو حل ما عقدته ـ بالكفارة، والتحلة مصدر بمعنى التحليل. ﴿وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ﴾ أي: يتولى أموركم.

قال القرطبي: ﴿وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ﴾ وليكم وناصركم بإزالة الحظر فيما تحرمونه على أنفسكم، وبالترخيص لكم في تحليل أيمانكم بالكفارة، وبالثواب على ما تخرجونه في الكفارة.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين، أي: قد شرع لكم، وقدَّر ما به تحل أيمانكم قبل الحنث، وما به تكفر به الحنث.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ، إلى أن قال: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٧٠).

تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ (سورة المائدة: ٨٩).

فكل من حرم حلالاً عليه، من طعام أو شراب، أو سرية، أو حلف يمينًا ما على فعل أو ترك، ثم حنث وأراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة.

■ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة التحريم: ٣):

قال القاسمي: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ هي حفصة ﴿حديثا﴾ وهو تحريم فتاته (مارية). قال ابن جرير: أو ما حرم على نفسه مما كان الله جلَّ ثناؤه قد أحله له، وقوله: «لا تذكري ذلك لأحد».

﴿فلمَّا نَبَّأَتْ به﴾ أي: أخبرت بالسر صاحبتها كما تقدم ﴿وأظهره الله عليه﴾ أي: أطلعه على تحديثها به ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ أي: عرفها بعض ما أفشته معاتبًا ﴿وأعرض عن بعض﴾ أي: بعض الحديث تكرمًا.

تنبيه:

في (الإكليل): في الآية أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى من يركن إليه من زوجة أو صديق، وأنه يلزمه كفارة، وفيها حسن المعاشرة مع الزوجات، والتلطف في العتب، والإعراض عن استقصاء الذنب.

وحكى الزمخشري عن سفيان قال: مازال التغافل من فعل الكرام.

ثم أشار تعالى إلى غضبه لنبيه ﷺ، مما أتت به من إفشاء السر إلى صاحبتها، ومن مظاهرتهما على ما يقلق راحته، وأن ذلك ذنب يجب التوبة منه.

■ وقال تعالى: ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ (سورة التحريم: ٤):

قال القاسمي: ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ أي إلى الحق، وهو ما وجب من مجانبة ما يسخط رسوله، وقد صح عن ابن عباس أنه سأل عمر بن الخطاب ﷺ عن المتظاهرين على رسول الله ﷺ، قال: عائشة وحفصة.

﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ أي: تتظاهرا وتتفقا على ما يسوؤه.

﴿ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ أي: متظاهرون على من أراد مساءته، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه؟

قال القرطبي: ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ يعني حفصة وعائشة، حثهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ.

﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ أي: زاغت ومالت عن الحق.

﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ أي: تتظاهرا وتتعاونا على النبي ﷺ بالمعصية والإيذاء.

﴿ فإن الله هو مولاه ﴾ أي: وليه وناصره، فلا يضره ذلك التظاهر منهما.

﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال عكرمة وسعيد بن جبير: أبو بكر وعمر لأنهما أبوا عائشة وحفصة، وقد كانا عونًا له عليهما. وقيل: صالح المؤمنين: علي ﷺ. وقيل: خيار المؤمنين.

قال السعدي: وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه الكريم وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم:

■ قال تعالى: ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾ (سورة التحريم: ٥).

قال القاسمي: ﴿مُسْلِمَاتٍ﴾ أي: خاضعات لله بالطاعة، ﴿مُّؤْمِنَاتٍ﴾ أي مصدقات بالله ورسوله، ﴿قَانِتَاتٍ﴾ أي: مطيعات لما يؤمرن به، ﴿تَائِبَاتٍ﴾ أي: من الذنوب لا يصرون عليها، ﴿عَابِدَاتٍ﴾ أي: متعبدات لله، كأن العبادة امتزجت بقلوبهن حتى صارت ملكة لهن ﴿سَائِحَاتٍ﴾ صائمات أو مهاجرات أو مسافرات.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وقوله ﴿سَائِحَاتٍ﴾ أي: صائمات.

وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ أي: مهاجرات، والقول الأول أولى.

قال صاحب تكملة أضواء البيان: فيه بيان أن الخيرية التي يختارها الله لرسوله ﷺ في النساء هي تلك الصفات من الإيمان والصلاح.

ثم قال ـ رحمه الله ـ: وفي تقديم الثيبات على الأبكار هنا في معرض التخيير ما يشعر بأولويتهن، مع أن الحديث: «هلا بكرًا تداعبك وتداعبها»، ونساء الجنة لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، ففيه أولية الأبكار.

وقد أجاب المفسرون بأن هذا للتنويع فقط، وأن الثيبات في الدنيا والأبكار في الجنة كمريم ابنة عمران.

والذي يظهر والله تعالى أعلم: أنه لما كان في مقام الانتصار لرسول الله ﷺ وتنبيههن لما يليق بمقامه عندهن، ذكر من الصفات العالية دينًا وخلقًا، وقدم الثيبات ليبين أن الخيرية فيهن بحسب العشرة ومحاسن الأخلاق.

قال السعدي: فلما سمعن ﵅ هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين.

٤ ـ ما فعلته السيدة عائشة ﵂ سلوى وعزاء للأزواج:

(ما فعلته السيدة عائشة ﵂ من تواطؤ مع السيدة حفصة ﵂، سلوى وعزاء للأزواج الذين يضيقون ويغضبون من كيد زوجاتهم، وتخفيف عنهم، حتى زوجات النبي ﷺ صدر عن بعضهن ما هو متفق مع طبيعة المرأة.

وفي قول السيدة عائشة ﵂: «وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح» إشارة واضحة إلى حرص النبي ﷺ على أن يكون دائمًا طيب الرائحة زكيها، وهذا ما تشهد به أحاديث أخرى كما في حديث أنس ﵁: «... **ولا شممت مسكًا ولا عنبرًا أطيب من رائحة النبي ﷺ**»[1].

وفي هذا توجيه للأزواج من رجال ونساء إلى التأسي بالنبي ﷺ في ذلك، فيحرصون على أن لا يشم كل من الزوجين من صاحبه إلاالرائحة الطيبة الزكية.

ونلحظ في الرواية الثانية أن أم المؤمنين سودة بنت زمعة ﵂ لم تستجب لما طلبته منها السيدة عائشة إلا خوفًا منها، حتى إنها كادت أن تقول للنبي ﷺ وهو ما يزال بالباب ـ أي ما يزال بعيدًا عنها ـ «أكلت مغافير؟»، وهو ما لا يمكن، لأن رائحة الفم لا تشم على هذا البعد، «تقول سودة لعائشة: والذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت لي، وإنه لعلى الباب، فرقًا منك».

وما يؤكد عدم اقتناع سودة بما فعلته، عطفها على النبي ﷺ وشفقتها به حين قالت لعائشة: «والله لقد حرمناه» أي: أكل العسل، بعد أن وعد بعدم أكله ثانية)[2].

٥ ـ هل ما يحدث بين الضرائر يمنع تعدد الزوجات؟

لقد حدث في بيت النبوة أكثر من موقف بين زوجات النبي ﷺ بسبب الغيرة، فهل منع الرسول ﷺ بسبب ذلك التعدد، أو أمر أصحابه بعدم التعدد؟

---

(١) متفق عليه.

(٢) «أحاديث المرأة في الصحيحين» محمد رشيد العويد (٢/ ١٥, ١٦).

لم يحدث هذا مطلقًا، وذلك لأن سلبيات الغيرة مهما كانت لا تساوي أبدًا الآثار الطيبة والمهمة من تشريع التعدد، وإلا لما شرعه الله عزَّ وجلَّ وهو الذي يعلم ما يحدثه التعدد من الغيرة بين النساء.

إن المتتبع لما حدث في بيت النبوة من مشاكل الغيرة بين الضرائر يجد أن هذه الأحداث لم تتجاوز ـ في الغالب ـ عشرة أحاديث، مع الأخذ في الاعتبار أن زوجات النبي ﷺ كن يعشن في مكان واحد وفي بيت واحد.

لذلك فإن مشاكل الغيرة تقل إذا تباعدت النساء وأصبح لكل واحدة مسكنًا خاصًا بها.

هذا فضلاً عن أن معالجة ذلك يتوقف غالبًا على حزم الرجل وقدرته على شئون أسرته، وذكائه في عدم سلوك أي مسلك من شأنه أن يؤجج نار الغيرة عند هذه أو تلك.

كذلك عدالته وخوفه من الله عزَّ وجلَّ في معاملته لزوجاته، حينئذ تقل مشاكل الغيرة، وتقل المشاكل داخل البيت.

وهذا لا يمنع ـ مع وجود حزم الرجل وعدالته ـ أن تكون امرأته امرأة سوء فتتسبب بسلوكها السيء في إحداث مشاكل داخل البيت، وليس للرجل في ذلك ذنب.

ونحن نوصي الرجل الذي له أكثر من زوجة أن يحسن التعامل مع غيرة زوجته أو بعض زوجاته، فلا يقابل الإساءة بمثلها أو بردود أفعال سيئة، وإنما يتعلم من النبي ﷺ الحِلْمَ ورحابة الصدر والصبر في معالجة مثل هذه المشاكل.

٦ ـ الأيمان[(١)]:

تعريفها: الأيمان: جمع يمين وهي اليد المقابلة لليد اليسرى، وسُمِّي بها الحلف لأنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كل بيمين صاحبه، وقيل: لأنها تحفظ الشيء كما تحفظه اليمين.

---

(١) «فقه السنة» للشيخ سيد سابق ـ رحمه الله ـ (٣/١٠٨-١١٧).

ومعنى اليمين في الشرع: تحقيق الأمر أو توكيده بذكر اسم الله تعالى أو صفة من صفاته، أو هو عقد يقوي به الحالف عزمه على الفعل أو الترك.

واليمين والحلف والإيلاء والقسم بمعنى واحد.

اليمين لا يكون إلا بذكر اسم الله أو صفة من صفاته:

ولا يكون الحلف إلا بذكر اسم الله أو صفة من صفاته، سواء أكانت صفات ذات، أم صفات أفعال، كقوله: والله، وعزة الله، وعظمته، وكبريائه، وقدرته، وإرادته، وعلمه... كذا الحلف بالمصحف أوالقرآن أو سورة أو آية منه.

وفي القرآن الكريم يقول الله سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٢٢-٢٣).

ويقول: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (سورة المعارج: ٤٠-٤١).

وعن ابن عمر ﷺ قال: كانت يمين النبي ﷺ: «لا، ومُقلب القلوب».

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا اجتهد[1] في الدعاء قال: «والذي نفس أبي القاسم بيده» (رواه أبو داود).

«أَيْمُ الله»، و«عَمْرُ الله»، و«أقسمت عليك» قسم.

و«ايم الله» يمين لأنها بمعنى الله، أو وحق الله.

و«يمين الله» يمين عند الأحناف والمالكية لأن معناها: أحلف بالله.

وقالت الشافعية: لا تكون يمينًا إلا بالنية، فإن نوى الحالف اليمين انعقدت، وإن لم ينو لم تنعقد.

وعند أحمد: روايتان أصحهما أنها تنعقد.

---

(١) اجتهد: بالغ.

و«عمر الله» يمين عند الأحناف والمالكية، لأنها بمعنى: وحياة الله وبقائه.

وقال الشافعي رحمه الله وأحمد وإسحاق: لا يكون يمينًا إلا بالنية.

وكلمة «أقسمت عليك»، و«أقسمت بالله» يرى بعض العلماء أنه يكون يمينًا مطلقًا، ويرى أكثرهم أنه لايكون يمينًا إلا بالنية.

وذهبت الشافعية إلى أن ما ذكر فيه اسم الله يكون يمينًا، وأن ما لم يذكر فيه اسم الله لا يكون يمينًا وإن نوى اليمين.

وقال مالك رحمه الله: إن قال الحالف: «أقسمت بالله» كان يمينًا، وإن قال: «أقسمت» أو «أقسمت عليك» فإنه في هذه الصورة لا يكون يمينًا إلا بالنية.

الحلف بأيمان المسلمين:

سبق أن قلنا في المجلد الثاني من فقه السنة: إن الحلف بأيمان المسلمين لا يلزم به شيء.

ومن حلف فقال: إن فعلت كذا فعليَّ صيام شهر أو حج إلى بيت الله الحرام.

أو قال: إن فعلت كذا فالحلال عليَّ حرام.

أو قال: إن فعلت كذا فكل ما أملكه صدقة. فهذا وأمثاله فيه كفارة يمين متى حنث وهو أظهر أقوال العلماء، وقيل: لا شيء فيه.

وقيل: إذا حنث لزمه ما علقه وحلف به.

■ ***الحلف بأنه غير مسلم. أو الحلف بالبراءة من الإسلام:***

من حلف أنه يهودي، أو نصراني، أو أنه بريء من الله أو من رسوله ﷺ: إن فعل كذا ففعله.

قال جماعة من العلماء منهم الشافعي: ليس هذا بيمين ولا كفارة عليه؛ لأن النصوص اقتصرت على التهديد والزجر الشديد.

روى أبو دادو والنسائي عن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: **«من حلف فقال: إني بريء من الإسلام فإن كان كاذبًا فهو كما قال[1]، وإن كان صادقًا فلن يرجع إلى الإسلام سالمًا»**[2].

وعن ثابت بن الضحاك أن النبي ﷺ قال: **«من حلف بغير ملة الإسلام فهو كما قال»**[3].

وذهب الأحناف وأحمد وإسحاق وسفيان والأوزاعي: إلى أنه يمين، وعليه الكفارة إن حنث.

الحلف بغير الله محظور:

وإذا كانت اليمين لا تكون إلا بذكر اسم الله أو ذكر صفة من صفاته، فإنه يحرم الحلف بغير الله، لأن الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به، والله وحده هو المختص بالتعظيم.

فمن حلف بغير الله فأقسم بالنبي، أو الولي، أو الأب، أو الكعبة، أو ما شابه ذلك، فإن يمينه لا تنعقد، ولا كفارة عليه إذا حنث، وأثم بتعظيمه غير الله.

١ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أدرك عمر رضي الله عنه في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم الرسول ﷺ: **«ألا إن الله عزَّ وجلَّ ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»**[4]. قال عمر: **«فوالله ما حلفت بهذا منذ سمعت رسول الله ﷺ نهى عنها، ذاكرًا ولا آثرًا»**[5].

---

(١) أي هو كما قال عقوبة له على كذبه.

(٢) إن قصد بذلك إبعاد نفسه لم يكفر، وليقل: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، ويستغفر الله ويتوب إليه، وإن أراد الكفر إذا فعل المحلوف عليه كفر والعياذ بالله. رواه أبو داود والنسائي وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٢١).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٥) أي لم يحلف بأبيه من قبل نفسه ولا حاكيًا من غيره.

٢ ـ وسمع ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً يحلف: لا، والكعبة، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[1].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من حلف منكم فقال في حلفه باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعالَ أقامرْك فليتصدق**»[2].

٤ ـ وعند أبي داود: «**من حلف بالأمانة فليس منا**»[3]، أي ليس من طريقتنا.

٥ ـ وقال صلى الله عليه وسلم: «**لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد - أي الأصنام - ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا إلا وانتم صادقون**»[4] (رواه أبو داود والنسائي عن أبي هريرة).

الحلف بغير الله دون تعظيم المحلوف به:

جاء النهي عن الحلف بغير الله إذا كان يقصد بذكره التعظيم كالحالف بالله يقصد بذكره تعظيمه، أما إذا لم يقصد التعظيم بل قصد تأكيد الكلام فهو مكروه من أجل المشابهة، ولأنه يشعر بتعظيم غير الله.

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم للأعرابي: «**أفلح وأبيه**»

قال البيهقي: إن ذلك كان يقع من العرب ويجري على ألسنتهم من دون قصد، وأيد النووي هذا الرأي، وقال: إنه هو الجواب المرضي.

قسم الله بالمخلوقات:

كان العرب يهتمون بالكلام المبدوء بالقسم فيلقون إليه السمع مصغين لأنهم يرون أن قسم المتكلم دليل على عظم الاهتمام بما يريد أن يتكلم به، وأنه أقسم ليؤكد كلامه، وعلى هذا جاء القرآن يقسم بأشياء كثيرة.

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٠٤)

(٢) اللات والعزى: صنمان لأهل مكة كانوا يحلفون بهما في الجاهلية، فمن حلف بهما، فليكفر بقوله: «لا إله إلا الله»، كما يتصدق إذا طلب لعب القمار من صاحبه، والحديث رواه البخاري ومسلم.

(٣) حديث صحيح، صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٤).

(٤) حديث صحيح، صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٤٩).

منها القرآن كقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (سورة ق:١).

ومنها بعض المخلوقات مثل: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (سورة الشمس:١)، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ (سورة الليل:١-٢).

وإنما إذا كان لحكم كثيرة في المقسم به والمقسم عليه.

من هذه الحكم: لفت النظر إلى مواضع العبرة في هذه الأشياء بالقسم بها، والحث على تأملها حتى يصلوا إلى وجه الصواب فيها.

فقد أقسم سبحانه وتعالى بالقرآن لبيان أنه كلام الله حقًا وبه كل أسباب السعادة.

وأقسم بالملائكة لبيان أنهم عباد الله خاضعون له وليسوا بآلهة يعبدون.

وأقسم بالشمس والقمر والنجوم لما فيها من الفوائد والمنافع، وأن تغيرها من حال إلى حال يدل على حدوثها، وأن لها خالقًا وصانعًا حكيمًا، فلا يصح الغفلة عن شكره والتوجه إليه.

وأقسم بالريح، والطور، والقلم، والسماء ذات البروج إذ أن ذلك كله من آيات الله التي يجب التوجه إليها بالفكر والنظر.

أما المقسم عليه فأهمه وحدانية الله، ورسالة النبي ﷺ، وبعث الأجساد مرة أخرى، ويوم القيامة، لأن هذه هي أسس الدين التي يجب أن تعمق جذورها في النفس.

والقسم بالمخلوقات مما اختص الله به.

أما نحن البشر فلا يصح لنا أن نقسم إلا بالله أو بصفة من صفاته على النحو المتقدم ذكره.

شرط اليمين وركنها:

ويشترط في اليمين: العقل، والبلوغ، والإسلام، وإمكان البر، والاختيار، فإن حلف مكرهًا لم تنعقد يمينه، وركنها: اللفظ المستعمل فيها.

حكم اليمين:

وحكم اليمين أن يفعل الحالف المحلوف به فكيون باراً، أو لا يفعله فيحنث وتجب الكفارة.

أقسام اليمين:

تنقسم الأيمان أقساماً ثلاثة:

١ ـ اليمين اللغو.

٢ ـ اليمين المنعقدة.

٣ ـ اليمين الغموس.

اليمين اللغو وحكمها:

ويمين اللغو: هي الحلف من غير قصد اليمين كأن يقول المرء: والله لتأكلن، أو لتشربن، أو لتحضرن، ونحو ذلك لا يريد به يميناً، ولا يقصد به قسماً، فهو من سقط القول.

فعن السيدة عائشة أم المؤمنين ﵂ قالت: أنزلت هذه الآية: ﴿**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**﴾ (سورة البقرة:٢٢٥) في قول الرجل: «لا والله، وبلى والله، وكلا والله» (رواه البخاري ومسلم وغيرهما).

وقال مالك ﵀ والأحناف، والليث، والأوزاعي: «لغو اليمين أن يحلف على شيء يظن صدقه، فيظهر خلافه فهو من باب الخطأ».

وعند أحمد ﵀: روايتان كالمذهبين.

وحكم هذا اليمين: أنه لا كفارة فيه ولا مؤاخذة عليه.

اليمين المنعقدة وحكمها:

واليمين المنعقدة هي اليمين التي يقصدها الحالف ويصمم عليها، فهي يمين متعمدة مقصودة وليست لغوًا يجري على اللسان بمقتضى العرف والعادة، وقيل: اليمين المنعقدة هي أن يحلف على أمر من المستقبل أن يفعله أو لا يفعله.

وحكمها: وجوب الكفارة فيها عند الحنث.

يقول الله تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٢٥).

ويقول: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة المائدة: ٨٩).

اليمين الغموس وحكمها:

واليمين الغموس وتسمى أيضًا الصابرة، وهي اليمين الكاذبة التي تُهضَم بها الحقوق، أو التي يقصد بها الفسق والخيانة.

وهي كبيرة من كبائر الإثم ـ ولا كفارة فيها[1] ـ لأنها أعظم من أن تكفر، وسميت غموسًا لأنها تغمس صاحبها في نار جنهم.

وتجب التوبة منها، ورد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب عليها ضياع هذه الحقوق.

يقول الله سبحانه: ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النحل: ٩٤).

---

(١) وقال الشافعي، ورواية عن أحمد ﷺ: فيها الكفارة.

١ ـ وروى أحمد رضي الله عنه وأبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«خمس ليس لهن كفارة: الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، وبَهْتُ مؤمن، ويمين صابرة يقطع بها مالاً بغير حق»**[1].

٢ ـ وروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»**.

٣ ـ وروى أبو داود عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«من حلف على يمين مصبورة[2] كاذبًا، فليتبوأ مقعده من النار»**[3].

مبنى الأيمان على العرف والنية:

أمر الأيمان مبني على العرف الذي درج عليه الناس لا على دلالات اللغة، ولا على اصطلاحات الشرع، فمن حلف ألا يأكل لحمًا، فأكل سمكًا، فإنه لا يحنث، وإن كان الله سماه لحمًا، إلا إذا نواه، أو كان يدخل في عموم اللحم في عرف قومه.

ومن حلف على شيء ووَرَّى بغيره فالعبرة بنيته لا بلفظه، إلا إذا حلَّفه غيره على شيء، فالعبرة بنية المحلِّف لا الحالف، وإلا لم يكن للأيمان فائدة في التقاضي.

قال النووي: إن اليمين على نية الحالف في كل الأحوال إلا إذا استحلفه القاضي أو نائبه في دعوى توجهت عليه فهي على نية القاضي أو نائبه، ولا تصح التورية هنا وتصح في كل حال ولا يحنث بها وإن كانت للباطل حرامًا.

والدليل على أن العبرة بنية الحالف إلا إذا حلَّفه غيره، ما رواه أبو داود وابن ماجه عن سويد بن حنظلة قال: خرجنا نريد النبي صلى الله عليه وسلم ومعنا وائل بن حجر، فأخذه عدو له، فتحرج القوم أن يحلفوا، وحلفت أنه أخي، فخلَّى سبيله، فأتينا

(١) حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٤٧).
(٢) مصبورة: أي ألزم بها وحُبِس عليها، وكانت لازمة من جهة الحكم.
(٣) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢١٣).

النبي ﷺ ، فأخبرته أن القوم تحرجوا أن يحلفوا، وحلفت أنه أخي، قال: «صدقت، المسلم أخو المسلم».

والدليل على أن العبرة بنية المستحلف إذا استحلف على شيء، ما رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «اليمين على نية المستحلف».

وفي رواية: «يمينك على ما يصدقك عليه صاحبك» والصاحب: هو المستحلف وهما طالبا اليمين.

لا حنث مع النسيان أو الخطأ:

من حلف أن لا يفعل شيئًا ففعله ناسيًا أو خطأ فإنه لا يحنث لقول الرسول ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي: الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه»[1].

والله يقول: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾(سورة الأحزاب: ٥).

يمين المكره غير لازمة:

لا يلزم الوفاء باليمين التي يُكره المرء عليها، ولا يأثم إذا حنث[2] فيها للحديث المتقدم، ولأن المكره مسلوب الإرادة، وسلب الإرادة يُسقط التكليف، ولهذا ذهب الأئمة الثلاثة إلى أن يمين المكره لا تنعقد خلافًا لأبي حنيفة.

الاستثناء في اليمين:

من حلف فقال: إن شاء الله فقد استثنى ولا حنث عليه.

فعن ابن عمر أن الرسول ﷺ قال: «من حلف على يمين فقال: إن شاء الله، فلا حِنْثَ عليه»(رواه أحمد وغيره وصححه ابن حبان)[3].

---

(١) رواه أحمد وغيره، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٣١).
(٢) الحنث في اليمين يكون بفعل ما حلف على تركه أو ترك ما حلف على فعله.
(٣) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢١٢).

تكرار اليمين:

إذا كرر اليمين على شيء واحد أو على أشياء وحنث، فقال أبو حنيفة ومالك وإحدى الروايتين عن أحمد: يلزم بكل يمين كفارة، وعند الحنابلة أن من لزمته أيمان قبل التكفير موجبها واحد، فعليه كفارة واحدة لأنها كفارات من جنس واحد وإن اختلف موجب الأيمان وهو الكفارة كظهار ويمين بالله لزمته الكفارتان ولم تتداخلا.

كفارة اليمين:

تعريف الكفارة:

الكفارة صيغة مبالغة من الكفر، وهو الستر، والمقصود بها هنا الأعمال التي تكفر بعض الذنوب وتسترها حتى لا يكون لها أثر يؤاخذ به في الدنيا ولا في الآخرة، والذي يكفر اليمين المنعقدة إذا حنث فيها الحالف:

١ ـ الإطعام.

٢ ـ الكسوة.

٣ ـ العتق.

على التخيير، فمن لم يستطع، فليصم ثلاثة أيام.

وهذه الثلاثة مرتبة ترتيبًا تصاعديًا، أي تبدأ من الأدنى للأعلى، فالإطعام أدناها، والكسوة أوسطها، والعتق أعلاها.

يقول الله تعالى: ﴿ **فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (سورة المائدة: ٨٩).

حكمة الكفارة:

الحِنْثُ خُلْفٌ وعدم وفاء، فتجب الكفارة جبرًا لهذا.

الإطعام:

لم يرد نص شرعي في مقدار الطعام ونوعه، وكل ما كان كذلك يرجع فيه إلى التقدير بالعرف، فيكون الطعام مقدَّرًا بقدر ما يطعم منه الإنسان أهل بيته غالبًا، لا من الأعلى الذي يُتوسَّعُ به في المواسم والمناسبات، ولا من الأدنى الذي يطعمه في بعض الأحيان.

فلو كانت عادة الإنسان الغالبة في بيته أكل اللحم والخضروات وخبز البُر فلا يجزىء ما دونه، وإنما يجزىء ما كان مثله أو أعلى منه، لأن المثل وسط، والأعلى فيه الوسط وزيادة، وهذا مما يختلف باختلاف الأفراد والبلاد.

وقد كان الإمام مالك ﷺ يرى أن المدَّ يجزىء في المدينة، قال: وأما البلدان فلهم عيشٌ غير عيشنا فأرى أن يكفروا بالوسط من عيشهم لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، وهذا مذهب داود وأصحابه.

واشترط الفقهاء أن يكون العشرة المساكين من المسلمين، إلا أبا حنيفة، فإنه جوَّز دفعها إلى فقراء أهل الذمة.

ولو أطعم مسكينًا عشرة أيام، فإنه يجزئ عن عشرة مساكين عند أبي حنيفة، وقال غيره: يجزئ عن مسكين واحد.

وإنما تجب كفارة الإطعام على المستطيع وهو من يجد ذلك فاضلاً عن نفقته ونفقة من يعول.

وقدَّر بعض العلماء الاستطاعة بوجود خمسين درهمًا عنده، كما قال قتادة، أو عشرين كما قاله النخعي.

الكسوة:

وهي اللباس، ويجزئ منها ما يسمى كسوة، وأقل ذلك ما يلبسه المساكين عادة، لأن الآية لم تقيدها بالأوسط، أو بما يلبسه الأهل فيكفي القميص السابغ (جلابية) مع السراويل.

كما تكفي العباءة أو الإزار والرداء.

ولا يجزئ فيها القلنسوة أو العمامة أو الحذاء أو المنديل أو المنشفة.

وعن الحسن وابن سيرين: أن الواجب ثوبان، ثوبان.

وعن سعيد بن المسيب: عمامة يلف بها رأسه وعباءة يلتحف بها.

وعن عطاء، وطاووس، والنخعي: ثوب جامع كالملحفة والرداء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: عباءة لكل مسكين أو شملة.

وقال مالك وأحمد رضي الله عنهما: يدفع لكل مسكين ما يصح أن يصلي فيه إن كان رجلاً أو امرأة كل بحسبه.

تحرير الرقبة:

أي إعتاق الرقيق وتحريره من العبودية ولو كان كافراً عملاً بإطلاق الآية عند أبي حنيفة وأبي ثور وابن المنذر.

واشترط الجمهور الإيمان حملاً للمطلق هنا على المقيد في كفارة القتل والظهار إذ تقول الآية: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾(سورة النساء: ٩٢).

الصيام عند عدم الاستطاعة:

فمن لم يستطع واحدة من هذه الثلاث، وجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام.

فإن لم يستطع لمرض أو نحوه، ينوي الصيام عند الاستطاعة، فإن لم يقدر، فإن عفو الله يسعه.

ولا يشترط التتابع في الصوم، فيجوز صيامها متتابعة، كما يجوز صيامها متفرقة.

وما ذكره الحنفية، والحنابلة، من اشتراط التتابع غير صحيح فقد استدلوا بقراءة جاء فيها كلمة «متتابعات» وهي قراءة شاذة ولا يستدل بالقراءة الشاذة، لأنها ليست قرآنًا، ولم تصح هنا حديثًا حتى تكون تفسيراً من النبي ﷺ للآية.

إخراج القيمة:

اتفق الأئمة الثلاثة على أن كفارة اليمين لا يجزئ فيها إخراج القيمة عن الإطعام والكسوة، وأجاز ذلك أبو حنيفة رحمه الله.

الكفارة قبل الحنث وبعده:

اتفق الفقهاء على أن الكفارة لا تجب إلا بالحنث، واختلفوا في جواز تقديمها عليه، فجمهور الفقهاء يرى أنه يجوز تقديم الكفارة على الحنث، وتأخيرها عنه، ففي الحديث عند مسلم وأبي داود والترمذي: **«من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل»**[1].

ففي هذا الحديث جواز تقديم الكفارة على الحنث.

وإذا تقدمت الكفارة على الحنث كان الشروع في الحنث غير مشروع في الإثم، إذ تقديم الكفارة يجعل الشيء المحلوف عليه مباحًا.

وعند مسلم أيضًا ما يفيد جواز تأخير الكفارة لقول الرسول ﷺ: **«من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتها، وليكفر عن يمينه»**.

قال هؤلاء: ومن قدم الحنث كان شارعًا في معصية، وقد يموت قبل أن يتمكن من الكفارة، ولعل هذه هي حكمة إرشاد الرسول ﷺ إلى تقديم الكفارة.

ويرى أبو حنيفة أن الكفارة لا تصح إلا بعد الحنث لتحقيق موجبها حينئذ، وقوله ﷺ: **«فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير»**.

معناه عنده: فليقصد أداء الكفارة كقوله تعالى: ﴿**فإذا قرأتَ القُرآنَ فاستعذْ**﴾ (سورة النحل:٩٨)، أي: إذا أردت، والأول أرجح.

---

(١) أي يفعل ما فيه الخير.

جواز الحنث للمصلحة:

الأصل أن يفي الحالف باليمين.

ويجوز له العدول عن الوفاء إذا رأى في ذلك مصلحة راجحة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٢٤).

أي لا تجعلوا الحلف بالله مانعًا لكم من البر والتقوى والإصلاح.

ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ (سورة التحريم: ٢).

أي شرع الله لكم تحليل الأيمان بعمل الكفارة.

روى أحمد والبخاري ومسلم، أن النبي ﷺ قال: «**إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير، وكفر عن يمينك**».

أقسام اليمين باعتبار المحلوف عليه:

وعلى هذا يمكن تقسيم اليمين باعتبار المحلوف عليه إلى الأقسام الآتية:

١ ـ أن يحلف على فعل واجب أو ترك محرم، فهذا يحرم الحنث فيه لأنه تأكيد لما كلفه الله به من عبادة.

٢ ـ أن يحلف على ترك واجب أو فعل محرم. فهذا يجب الحنث فيه لأنه حَلَفَ على معصية، كما تجب الكفارة.

٣ ـ أن يحلف على فعل مباح، أو تركه، فهذا يكره فيه الحنث ويندب البر.

٤ ـ أن يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه، فالحنث مندوب، ويكره التمادي فيه وتجب الكفارة.

٥ ـ أن يحلف على فعل مندوب، أو ترك مكروه، فهذا طاعة لله، فيندب له الوفاء ويكره الحنث.

الحديث الحادي عشر

الرسول ﷺ خير زوج لخير زوجة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا، قالت الأولى: زوجي لحم جمل غَث على رأس جَبَل، لا سهلٍ فيُرتَقى، ولا سمين فيُنتَقل. قالت الثانية: زوجي لا أبثُّ خَبرَه، إني أخاف أن لا أذَرَه، إن أذكُره أذكرْ عُجَرَه وبُجَرَه. قالت الثالثة: زوجي العَشَنَّق، إن أنطق أُطَلَّقْ، وإن أسكت أُعلق. قالت الرابعة: زوجي كلَيْل تِهَامة، لا حَرٌّ ولا قُرٌّ ولا مَخافةَ ولا سآمة. قالت الخامسة: زوجي إذا دخل فَهِد، وإن خرج أَسِد، ولا يَسأَلُ عما عهد. قالت السادسة: زوجي إن أكل لَفَّ، وإن شَرِبَ اشتفَّ، وإن اضطَجَع التَفَّ، ولا يُولجُ الكفَّ ليعلم البثَّ.

قالت السابعة: زوجي غياياء - أو عياياءُ - طباقاء، كلُّ داءٍ له داء، شَجَّك أو فَلَّك أو جمع كلاً لك. قالت الثامنة: زوجي المسُّ مسُّ أرنب، والرِّيح ريحُ زرنب. قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النِّجاد، عظيم الرَّماد، قريب البيت من الناد. قالت العاشرة: زوجي مالك وما مالك، مالكٌ خيرٌ من ذلك، له إبلٌ كثيراتُ المبارك، قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المزهر، أيقنَّ أنهنَّ هوالك.

قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع فما أبو زرع، أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذنيَّ، وملأ من شحم عَضُديَّ، وبجحني فَبَجِحَت إليَّ نفسي، وَجَدَني في أهل غُنَيمة بشق، فجعلني في

أهل صـهـيل وأطيط، ودائس ومنق، فعنده

أقول فلا أقبح، وأرقد فأتصبَّح، وأشرب فأتقنَّح. أمُّ أبي زرع

فما أمُّ أبي زرع، عُكُومُها رداحٌ، وبيتها فَسَاح، ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع،

مضجعه كمسلُ شَطْبَة، ويُشْبِعُهُ ذراع الجَفْرة. بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع، طوعُ

أبيها، وطوع أمها، وملء كسائها، وغيظ جارتها. جارية أبي زرع، فما جارية أبي زرع،

لا تبث حديثنا تبثيثًا ولا تُنَقِثُ ميراثنا تنقيثًا، ولا تملأ بيتنا تعشيشًا، قالت: خرج

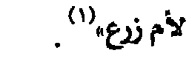
أبو زرع والأوطاب تُمْخَض، فَلَقَى امرأة معها وَلَدان لها كالفهدين يلعبان من تحت

خصرها برمانتين، فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سريًا، ركب شريًا، وأخذ

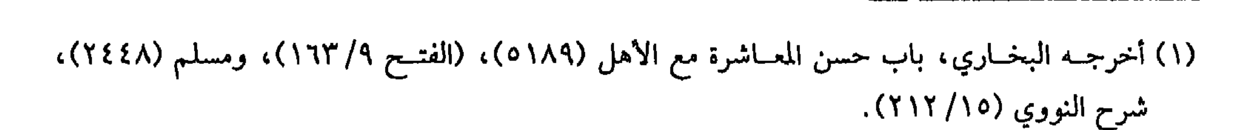
خطيًا، وأراح عليَّ نعمًا ثريًا، وأعطاني من كل رائحة زوجًا، وقال: كلي أم زرع،

وميري أهلك، قالت: فلو جمعت كل شيء أعطاني ما بلغ أصغر آنية أبي

زرع. قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «كنت لك كأبي زرع



لأم زرع»[1].



(١) أخرجه البخاري، باب حسن المعاشرة مع الأهل (٥١٨٩)، (الفتح ٩/ ١٦٣)، ومسلم (٢٤٤٨)، شرح النووي (١٥/ ٢١٢).

الدروس المستفادة:

١ . حسن المعاشرة مع الأهل:

قال الله تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ (سورة النساء:١٩).

والنبي ﷺ في هذا الحديث يستمع إلى عائشة وهي تقص نبأ إحدى عشرة امرأة، وفي نهاية حديثها يرطِّب قلبها بما يدخل عليها السرور والفرح والطمأنينة، وكل ذلك من حسن معاشرة الرجل لزوجته.

(من أجل أن يكسب الرجل ود زوجته ومحبتها وإخلاصها ويستطيع قيادتها إلى كل ما يريد، عليه الاهتمام بها كامرأة تتمتع بجانب كبير من الجمال. عليه احترام أفكارها وآرائها والإشادة بعملها وتنظيمها لبيتها. لو سأل كل رجل نفسه: كم مرة أثنى على وظيفة زوجته في منزلها، لوجد أن رصيده من هذا القبيل متواضع، فالكل يعرف دور التشجيع وأثره في حفز الهمم وبعث النشاط، فهو الوقود الذي يحرك الحياة ويبعث فيها البهجة والسرور والحيوية والنشاط. والزوجة كغيرها تتمنى أن يحس الآخرون بدورها وبوجودها ويدفعونها إلى دورها الإيجابي عبر الإحساس بكيانها ومهمتها ورسالتها، ولعلنا عبر الأفكار التالية نستطيع الوصول إلى المطلوب.

الزوجة تحمل شخصية مستقلة ولها آراؤها وأفكارها التي تناسبها، ولكنها في الغالب رقيقة المشاعر والعواطف، سهلة القيادة لمن يحسن فن القيادة. فمن السهل أن تحركها للهدف الذي تريد إذا استطعت أن تستحوذ على عواطفها وتسيطر على وجدانها وتسير عبر أفكارها إلى ما تنشد، فالزوجة لا تعكر على زوجها الحياة لأنها تكرهه، ولكن تفعل ذلك تحت ضغط الظروف النفسية والجسمية بسب طبيعتها كأنثى، فالضعف يولد القلق، وآلام الدورة الشهرية وظروفها تدفع إلى العصبية، وضوضاء الأولاد يقضي على رصيد المرأة من الصبر والقدرة على التحمل.

إذا كانت المرأة هي أول من يقوم من أهل البيت وآخر من ينام، ألا تستحق هذه التضحية الدائمة التقدير والاحترام؟ وكلمة تشجيع واحدة من زوجها يحسسها بماتقوم به من دور فعال ومؤثر لخدمة العائلة، تنسيها المتاعب وتجدد من حيويتها ونشاطها وتمنحها الثقة والقدرة على مضاعفة الاحتمال. كل أهل البيت يمرضون وتسير عجلة الحياة في البيت، ولكن عندما تمرض الزوجة تتوقف الحياة، ثم بالتالي فإن المرأة لها المفاهيم والأفكار الخاصة بها التي تدافع عنها انطلاقًا من نظرتها للحياة وفهمها لها حسب مكوناتها وتجاربها.

الزوجة تملك مواصفات جمالية متنوعة، ألا يستحق جمالها الإشادة به حتى يستمر في بريقه؟ تقول بعض الزوجات: كثيرًا ما تقف الواحدة منا أمام زوجها وقد وضعت مسحة كبيرة من الجمال على جسمها، ولبست أغلى وأحلى ملابسها وأنفقت كثيرًا من وقتها وجهدها، ثم تقف أمام جماد لا ينبض بالحركة، أين المشاعر وأحاسيس هذا الزوج هل دفنها بعد ليلة الزواج، أم أن مشاعره تتحرك وتود أن ترى النور ولكنه لا يستطيع أن يبوح بها بسبب العادة؟ تتمنى المرأة أن تدفع الكثير لتسمع من زوجها شعوره نحوها وإحساسه بها.

تقول زوجة: كم أتمنى أن يطربني زوجي بكلمة إعجاب واحدة لأعلقها وسامًا غاليًا في منزلي. قامت زوجة بالإشادة بجمال صديقتها فقالت لها بعد أن شكرتها: يا ليت زوجي يشوف بعيونك. ردت عليها الأخرى قائلة: مسكينة تلك المرأة الجميلة التي يكون زوجها أعمى لا يرى. بعض الرجال يلوم الزوجة على عدم اهتمامها بنفسها والتجمل له ويتساءل: لماذا تهتم زوجتي بنفسها عندما تزور أقاربها؟ وربما كا الجواب هو أنهم يشعرونها بجمالها، وكثير من الرجال لا يفعل ذلك بسبب الموروثات التي عاشوها وتربوا على ضفافها. فمن النادر أن يشاهد الإنسان والده أو قريبه أثناء الطفولة مثلاً يتغنى بجمال زوجته، والمرأة تتألم من جفاء الرجل لها وعدم إحساسه بها.

قيل لامرأة: كم أنت جميلة جـدًا! قالت: إن زوجي يرى كل شيء إلا جمالي، فهو مصاب بعمى الجمال.

وسألت امرأة زوجها: لماذا لا يشيد بجمالها كما كان يفعل قبل الزواج معها؟ قال مازحًا: لقد نضبت الكلمات من بحر حب كنت أملكه كسلاح لإدخالك قفص الزواج وأشبك فيك رباطه، وقد حققت ذلك، فلماذا أضع الطعم للسمكة بعد صيدها؟!)[1].

٢ ـ احذروا الغيبة:

من الأمور العظيمة التي تقع فيها كثير من النساء كفران العشير، وهو الكفر بنعمة الزوج، فبسهولة تنسى له كل خصلة طيبة مع أي خلاف، في الوقت الذي تخلع عليه كل صفات الكمال إن رضيت عنه.

ومن مظاهر كفران العشير اغتياب الزوجة لزوجها، والطعن فيه وهتك ستره وفضحه عند حدوث مشاكل بينهما.

وهذا ما وقعت فيه بعض النساء في حديث أم زرع عندما اغتبن أزواجهن وذكرنهن بسوء، وإن كان هؤلاء النسوة يتحدثن قبل الإسلام، إلا أنه يبقى أن أمر الغيبة محرم ولاشك.

(لقد حث الإسلام الزوجة المسلمة على حفظ زوجها في غيبته سواء كانت غيبة قريبة قصيرة، أو بعيدة طويلة، وجعل تحليها بهذه الصفة الإيمانية من أسباب سعادة الزوج والحياة الزوجية، وأثنى على أهلها ثناءً جميلاً، وجعل تخليها عن هذه الصفة من أسباب شقاء الزوج ومنغصات الحياة الزوجية.

---

(١) «الشهد والشوك في الحياة الزوجية» صالح بن عبد الله الغيثم، (ص: ١١٤-١١٦).

الثناء على الحافظات للغيب:

لقد أثنى الله تبارك وتعالى على الزوجة التي تحفظ زوجها في غيبته، فجعل ذلك من معالم الصلاح والتقوى.

قال الله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (سورة النساء: ٣٤).

ولقد مدح ﷺ المرأة التي تصون غيبة زوجهـا، وعدَّها خير كنز للمرء، وخير متاع في الدنيا، ومن أعظم أسباب السعادة والسرور.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ أي النساء خير؟ قال: «التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا في مالها بما يكره»[(١)].

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقوة ابن آدم ثلاثة، من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء»[(٢)].

وفي رواية: «أربعة...»، وفيها زيادة: «الجار الصالح، والجار السوء»

وفي رواية أخرى تفصيل لأسباب السعادة، وأسباب الشقاوة.

عن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من السعادة: المرأة تراها تعجبك، وتغيب فتأمنها على نفسها...» إلى قوله: «وثلاث من الشقاوة: المرأة تراها فتسوءك، وتحمل لسانها عليك، وإن غبت لم تأمنها على نفسها»[(٣)] الحديث.

---

(١) رواه النسائي والحاكم والإمام أحمد، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (برقم: ١٨٣٨).

(٢) أحمد والحاكم (صحيح).

(٣) الحاكم، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٥٦) بلفظ: «ثلاثة من السعادة، وثلاثة من الشقاوة...».

هكذا مكانتك أيتها الزوجة في سعادة الأسرة وشقاوتها فاحرصي على أن تكوني مصدر سعادة وهناء لا مصدر شقاء.

المرأة راعية:

لقد كلف الإسلام المرأة، وأناط بها مسئولية كبرى، فجعلها راعية وأمينة وحافظة لبيت زوجها، وليس لها خيار في ذلك، فإن رعت وحفظت كانت سعادةالدنيا والآخرة، وإن أهملت وخانت كانت شقاوة الدنيا والآخرة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؛ الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته»**[1].

كيف تحفظين غيبة زوجك؟

إن حفظ الزوج في غيبته واجب شرعي، وتكليف رباني، وليس ندبًا وفضلاً، ويجدر بنا أن نتناول كيفية حفظ الزوجة لزوجها في غيبته لأهميته، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

- حفظه في أسراره، في أولاده، في أمواله، في نفسها، في أهله وأقاربه.

فيجب على المرأة المسلمة أن تحافظ على أسرار زوجها، وما يحدث بينهما مما لا ينبغي إظهاره وإشاعته كتفاصيل الجماع، والمشاكل والخلافات... ومما ينبغي الحذر منه تحديث النساء خفية أو صراحة، مباشرة أو غير مباشرة... بأي سر من الأسرار سواء كن من القريبات أو البعيدات... فإن ذلك سينقل لا محالة.

فما أكثر أحاديث النساء!! وما أضعفهن عن تحمل الأسرار والمحافظة عليها!!

---

(١) رواه البخاري (١٣/ ١٠٠)، ومسلم (١٨٢٩)، والترمذي (١٧٠٥)، وأبو داود (٢٩٢٨).

وما أسرعهن في نقلها والزيادة عليها!!

فلتحذر الأخت المسلمة من ذلك؛ حتى لا توغر صدر زوجها، وإن سئلت فلا تجب، وإن في المعاريض لمندوحة.

ولتحفظه في أولاده بحسن التربية والتعليم، والتأديب، ورعاية صحتهم... إلى غير ذلك، كما عليها أن ترعى أولاد زوجها من غيرها فلا تقس عليهم وتحرمهم العطف والرعاية... ولتحذر الزوجات من المبالغة في تدليل الأولاد، وترك الحبل لهم على الغارب... بحجة أن أباهم غائب فهم محرومون من عطف الأبوة فلا ينبغي إغضابهم والحيلولة دون طلبهم فتلبي طلبات الفساد، وتهمل التوجيه والإرشاد فيفسد بذلك الأولاد، وتلك خيانة كبرى، لها وقعها الأليم على نفس الزوج المسلم.

كما يجب أن تحفظه في ماله، سواء كان نقودًا، أو أثاثًا، أو أي ممتلكات، فلا تتصرف في شيء إلا بإذنه ورضاه، ولا تبذر ولا تسرف، ولا تنفق الأموال الطائلة في التزين والتجمل والكماليات المرهقة.

إن عليها أن تكون رشيدة في إنفاقها في حضرته، وأشد رشدًا في غيبته.

كما يجب أن تحفظه في نفسها وعرضها؛ فلا تخرج إلا بإذنه، وإن خرجت فلتحافظ غاية المحافظة على الالتزام بآداب الإسلام في الخروج فلا تتبرج، ولا تتزين ولا تتعطر... وغير ذلك مما يجذب الأنظار، ولتبتعد غاية البعد عن ارتياد مواطن الريب والفساد، والاختلاط بالأجانب، ومجالسة الفسقة من النساء والرجال.

ولا تأذن لأحد في دخول البيت سواء كان من الأجانب أو الأقارب إذا كره ذلك، ولا تسمح لأجنبي أن يخلو بها...

كما يجب أن تحفظه في أهله وأقاربه؛ فلا تسيء إليهم، ولا تقاطعهم، وتثير الشغب والمشاكل، والخلافات والمنغصات بالحقد والحسد، والغيرة والعصيان... وغير ذلك.

ومن أعظم ما تحفظ به زوجها في ذلك أن تصبر على أي أذى يقع، أو مشكلات تحدث، أو ضرر يلحق، حتى يرجع زوجها فتخبره بحكمة وهدوء ليعالج الأمور بحكمة وهدوء، فإن من أعظم ما ينغص على الزوج حياته ومعيشته، ويؤرقه في غربته، أن يسمع بخلافات أمه وأخواته وسائر أقاربه مع زوجته.

فعلى الزوجة أن تكون وفية كريمة، عاقلة حكيمة، فتصبر وتحتسب، ولا تتهور فتكيل الصاع بالصاعين والبادي أظلم، وتهجر البيت إلى أهلها، وتبدأ سهام الطعن تراشق، وقذائف الفضائح تنطلق، ونبال الغمز واللمز والهمز والعيب تتبادل، والزوج في غيبته لا يدري، وعندما يدري يتملكه الشقاء، وتستبد به الهموم والأحزان، وقد يتصرف تصرفات لا تحمد عقابها في حق الزوجة.

وأخيراً أقول: إن حفظ الغيب من معالم احترام المرء لإنسانيته، وبيان أنه إنسان لا حيوان تردعه العصا، ويؤدبه السوط، إنه إنسان يراقب ربه في السر والعلانية، في الغيب والشهادة، فيرعى حقوق الغائب والحاضر، والغائب أكثر وأشد.

وتلك هي التقوى.

فاحرصي أيتها الزوجة على التقوى تَسْعَدي في نفسك وتُسْعِدي زوجك)[1].

٣ ـ صفات الأزواج بين المدح والذم:

■ **قالت الأولى: «زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل، لا سهلٌ فيُرتقى ولا سمين فَيُنْتقل».**

معاني المفردات:

«الغث»: الهزيل الذي يستغث من هزاله، أي: يستترك ويستكره.

«فيرتقى»: فيُصعد فيه.

«ولا سمين فينتقل»: أي إنه لهزاله لا يرغب أحدٌ فيه فينتقل إليه.

---

(١) «كيف تسعدين زوجك» محمد عبد الحليم حامد (ص: ٧٦-٨١).

الشـرح:

شبهت زوجهـا باللحم الغث، وشبهت سوء خلقه بالجبل الوعـر، ثم فسرت ما أجملت، فكأنها قالت: لا الجبل سهل فلا يشق ارتقاؤه لأخذ اللحم ولو كان هزيلاً؛ لأن الشيء المزهود فيه قد يؤخذ إذا وجـد بغير نصب، ثم قالت: ولا اللحم سمين، فيتحمل المشقة في صعود الجبل لأجل تحصيله.

وقال النووي: فسره الجمهور بأنه قليل الخير من أوجه:

منها كونه كلحم الجمل لا كلحم الضأن مثلاً، ومنها أنه مع ذلك مهزول رديء، ومنها أنه صعب التناول لا يوصل إليه إلا بمشقة شديدة.

وذهب الخطابي إلى أن تشبيـهها بالجبل الوعر إشارة إلى سـوء خلقه، وأنه يترفع ويتكبر ويسمو بنفسه فوق موضعها، فيجمع البخل وسوء الخلق.

وقال عيـاض: شبهت وعورة خلقـه بالجبل، وبُعد خيره ببـعد اللحم على رأس الجبل، والزهد فيما يرجى منه مع قلته وتعذره بالزهد في لحم الجمل الهزيل، فأعطت التشبيه حقه ووفته قسطه.

■ **قالت الثانية: «زوجي لا أبثُ خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذكره أذكر عُجَرَه وبُجَرَه».**

معاني المفردات:

«لا ابث خبره»: أي لا أظهر حديثه ولا أنشره.

«إني اخاف ان لا اذره»: أي أخاف أن لا أترك من خبره شيئًا، فـالضمير للخبر، أي إنه لطوله وكثرته إن بدأته لم أقدر على تكميله، فاكتفت بالإشارة إلى معايبه خشية أن يطول الخطب بإيرادها.

وقيل: أخشى إذا ذكرت مـا فيه أن يبلغه فيفارقـني، فكأنها قالت: أخاف أن لا أقدر على تركه لعلاقتي به وأولادي منه.

«عجره وبجره»: فالعُجَر تَعَقُّدُ العصب والعروق في الجسد حتى تصير ناتئة، والبُجَر مثلها إلا أنها مختصة بالتي تكون في البطن.

الشرح:

قال الخطابي: أرادت عيوبه الظاهرة وأسراره الكامنة.

وقال أبو سعيد الضرير: عنت أن زوجها كثير المعايب متعقد النفس عن المكارم.

(والمعنى الإجمالي ـ والله أعلم ـ أن المرأة تشير إلى أن زوجها مليء بالعيوب، فهي تقول: إنني إذا تكلمت فيه ونشرت أخباره أخشى أن أستمر في الحديث ولا أنتهي لكثرة ما فيه من شرور وانفعالات، وماذا أتذكر من زوجي، إن تذكرت منه شيئًا؟! فالذي أتذكره هو العُقد الموجودة في وجهه وانتفاخ أوداجه والنتوء الظاهرة في عروق البطن والجسد، هذا الذي أذكره منه)[1].

■قالت الثالثة: «زوجي العَشَنَّق، إن أنطقْ أطلَّق، وإن أسكت أعَلَق».

معاني المفردات:

«العشنق»: المذموم الطول. قال الأصمعي: أرادت أنه ليس عنده أكثر من طوله بغير نفع.

«إن أنطق أطلق»: أي إن ذكرت عيوبه فيبلغه، طلقني.

«وإن أسكت أعلق»: وإن سكتُّ عنها، فأنا عنده معلقة لا ذات زوج ولا أيم، فكأنها قالت: أنا عنده لا ذات بعل فأنتفع به، ولا مطلقة فأتفرغ لغيره.

الشرح:

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «ومعناه: ليس فيه أكثر من طول بلا نفع، فإن ذكرتُ عيوبه طلقني، وإن سكتُّ عنه علقني، فتركني لا عزباء ولا مزوجة».

---

(١) «فقه التعامل بين الزوجين» للعدوي (ص:٤٥).

ولعل سائلاً يسأل: ما الذي يحمل هذه المرأة على أن تبقى مع زوجها ولا تطلب الطلاق ما دام بهذا الخلق السيء؟

فنقول: إن المرأة تحسب ألف حساب لطلاقها، فالطلاق ليس بالأمر الهين الذي تندفع إليه المرأة بسرعة، فلو عاشت مع زوجها ينفق عليها لكان في ذلك ميزة بدلاً من أن تمد يدها لهذا أو لذاك، فهذا يعطيها وذلك يعتذر، وثالث يَمُنُّ عليها، فضلاً عن النظرة القاتلة للمجتمع للمرأة المطلقة، فهي عملية موازنة تزنها المرأة ثم تعطي القرار بطلب الطلاق من عدمه.

والمرأة تصبر أحيانًا على مثل هذه الحياة المريرة، مادامت تعيش في كَنَف رجل، والله عزَّ وجلَّ قد فطر المرأة على الاستئناس برجل.

■ **قالت الرابعة: «زوجي كلَيْلِ تهامة، لا حَرٌّ ولا قُرٌّ، ولا مخافةَ ولا سآمة».**

معاني المفردات:

«كليل تهامة»: مثل جو تهامة اللطيف الطيب.

«لا حرولا قر»: الجو ليس حراً ولا بارداً أي لطيف المعشر حلو العشرة.

«ولا مخافة ولا سآمة»: لست خائفة ولا أمَلٌّ من معيشتي معه.

الشرح:

وصفت زوجها بجميل العشرة واعتدال الحال وسلامة الباطن، فكأنها قالت: لا أذى عنده ولا مكروه، وأنا آمنة منه فلا أخاف من شره، ولا ملل عنده فيسأم من عشرتي، أو ليس بسيء الخلق فأسأم من عشرته، فأنا لذيذة العيش عنده كلذة أهل تهامة بليلهم المعتدل.

وأردأ الرجال هو الذي لاتشعر المرأة بالأنس معه، ولو نحن تعلمنا من النبي ﷺ كيف كان يعامل زوجاته، لانتهت المشاكل من البيوت أو على الأقل لقلت وما استفحلت.

فقد روى النسائـي بإسناد صحيح عن أم سلمة أنها يعني أتت بطعـام في صَحْفَة لها إلى رسـول الله ﷺ وأصحابه، فـجاءت عائشـة متزرة بكساء ومـعها فِـهر[1]، ففلقت به الصـحفة، فـجمع النبي ﷺ بين فلقـتي الصحفـة ويقول: **«كلوا غارت أمكم»** مرتين، ثم أخـذ رسول الله ﷺ صحـفة عائشـة فبعث بهـا إلى أم سلمة، وأعطى صحفة أم سلمة عائشة.

فحَلّ النبي ﷺ المشكلة بابتسامة وتصرف سهل يسير.

ومن الرجـال من لو كان فـي هذا الموقف لانتفـخت أوداجـه، وهدد بالطلاق، وضرب وصرخ، وهذا رد فعل خاطىء.

إن الزوج لابد أن يعلم أن المرأة أسيرة في سجن زوجها كما قال ﷺ: **«فإنهن عوان عندكم»** أي أسيرات، لذلك فـلابد للرجل أن يقدر هذه العلاقة فـهي الأسيرة، والرجل هو (السجّان)، وأن المرأة في النهـاية لا تستطيع أن ترغم الرجل على شيء، فكن معها حليمًا، صاحب كلمة طيبة، وابتسامة حانية.

■ **قالت الخامسة: «زوجي إن دخل فَهِد، وإن خرج أَسِد، ولا يَسأل عما عهد».**

الشـرح:

«إن دخل فهد»: قال أبو عبيد: وصفته بالغفلة عند دخول البيت على وجه المدح له.

وقال ابن حبيب: شـبهته في لينه وغفلته بالفهـد، لأنه يوصف بالحياء وقلة الشر وكثرة النوم.

«وإن خرج أسد»: أي يصير بين الناس مثل الأسد.

وقال ابن السكيت: تصفه بالنشاط في الغزو.

وقال ابن أبي أويس: مـعناه إن دخل البيت وثب عليّ وثوب الفهـد، وإن خرج كـان في الإقدام مـثل الأسـد، فعلى ذلـك يحتـمل قـوله: وثب على المدح والذم،

---

(١) فِهرٌ: أي حجر.

فالأولى تشير إلى كثرة جماعه لهـا إذا دخل، فينطوي تحت ذلك تمدحها بأنها محبوبة لديه بحيث لا يصبر عنها إذا رآها، والذم إمـا من جهة أنه غليظ الطبع، ليست عنده مداعبة ولا مـلاعبة قبل المواقعة، بل يثب وثوبًا كـالوحش، أو من جهة أنه كان سيء الخلق يبطش بها ويضـربها، وإذا خرج على الناس كان أمره أشـد في الجرأة والإقدام والمهابة كالأسد.

«ولا يسأل عما عهد»: يحتمل المدح والذم أيضًا، فالمدح بمعنى أنه شديد الكرم كثير التغاضي، لا يتفـقد ما ذهب من ماله، وإذا جاء بشيء لبيـته لا يسأل عنه بعد ذلك، أو لا يلتفت إلى ما يرى في البيت من المعايب، بل يسامح ويغضي.

ويحتمل الذم، بمعنى أنه غير مبال بحالها، حتى لو عرف أنها مريضة أو معوزة وغاب ثم جاء لا يسـأل عن شيء من ذلك، ولا يتفقد حـال أهله ولا بيته، بل إن عرَّضت له بشيء من ذلك وثب عـليها بالبطش والضـرب، وأكثر الشراح شـرحوه على المدح.

والحديث يشير إلى أن الرجـل لابد أن يكون عنده شيء من الغفلة داخل البيت. قيل لأعرابي: من العاقل؟ قال: الفطن المتغافل.

فلابد للرجل وإن كان سيـدًا مطاعًا أن يداري، والمداراة من خلق المسلم الحاذق. فكم من مشكلة تحدث في البيت بسبب أن الرجل لا يداري ولا يتغافل قليلاً، ولو أنه دارى أو تغافل لمرت المشاكل بسهولة، ومـا استفحلت داخل البيت، والرسول ﷺ أوصانا بذلك فقال: **«إن المرأة خلقت من ضلع، وإنك إن ترد إقامة الضلع تكسرها، فدارها تعش بها»**[1].

ومعنى ذلك: أن الرجل لابد أن ينزل من مكان الرجولة إلـى مستوى المرأة وهذه هي المداراة.

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن حبان وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٩٤٤).

والنبي ﷺ أفضل من مشى على الأرض، وأعـبد الخلق لله تعالى، هل نقص من هذا الوزن الضخم شيء لما قال لعائشة ﵂: **«تعالي اسابقك»**[(١)].

ثم أردفت المرأة تمدح زوجـها حتى لا تظـنوا أنه مغفل فـي وسط الرجال «وإذا خرج أسد» أي إذا خرج فهو رجل في وسط الرجال.

«ولا يسأل عما عهد»: فكن كريمًا مع زوجتك، فربما تعطي لأهلها شـيئًا أو تتصدق فلا داعي لإحراجها، بل وسِّع عليها وهذا من كرم الرجل وإغداقه على أهله.

■ **قالت السادسة: «زوجي إن أكل لفَّ، وإن شرب اشتفَّ، وإن اضطجع التفَّ، ولا يولج الكفَّ ليعلم البثَّ».**

معاني المفردات:

«إن أكل لف»: يخلط صنوف الطعام من نهمته وشرهه، ثم لا يبقي منه شيئًا.

«اشتف»: الاشتفاف في الشرب استقصاؤه، أي شرب الماء عن آخره.

«التف»: أي رقد ناحية وتلفف بكسائه وحده وانقبض عن أهله إعراضًا.

«لا يولج الكف ليعلم البث»: لا يمد يده ليعلم ما هي عليه من الحزن فيزيله.

الشـرح:

تصف زوجها بما يُذم به الرجل، وهو كثرة الأكل والشرب وقلة الجماع.

فهـو إذا أكل أخذ من كل ألوان الطعام، وإذا شرب شـرب الماء عن آخره، وهذا يدل على أنها زوجـة ماهرة في إعداد الطعام، فهل يكـون جزاؤها أنه إذا نام أعرض عنها، ولا يهتم بمشاعرها وأحاسيسها.

إن الزوج المسلم ينبغي أن يكون قلبه رقيـقًا، وعاطفته جياشة، ونفـسه حساسة، يشعر بـآلام زوجته دون أن تصرخ، فيـشاركها في آلامـها، ويخفف عنهـا أحزانها،

(١) أخرجه أبو داود والإمام أحمد وابن ماجه وغيرهم، وصححه الألباني في «آداب الزفاف».

ويطيب خاطرها دائمًا بالكلمة الطيبة، والبسمة الحانية، والهدية المناسبة، فيدخل السعادة والسرور على قلبها.

وإذا نظرنا إلى هديه ﷺ مع زوجاته لرأيناه يعطي المثل الرفيع في ذلك، فقد مرضت عائشة ذات يوم واشتكت وكانت تقول: «وارأساه، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك لو كان**[١] **وأنا حي فاستغفر لك، وأدعو لك**»، فقالت: واثكلاه، والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرسًا ببعض أزواجك، فقال ﷺ: «**بل أنا وارأساه**[٢]، **لقد هممت - أو أردت - أن أرسل إلى أبي بكر وابنه وأعهد**[٣]، **وأن يقول القائلون**،[٤] **أو يتمنى المتمنون**»، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون»[٥].

قال ابن حجر - رحمه الله -: المقام كان مقام استمالة قلب عائشة، فكأنه يقول: كما أن الأمر يفوض لأبيك فإن ذلك يقع بحضور أخيك، هذا إن كان المراد بالعهد العهد بالخلافة وهو ظاهر السياق[٦].

أرأيت أيها الزوج الحبيب إلى هذا الحنان، وتلك الرقة، والصبر على خطأ المريض، والحكمة في تطييب خاطر الزوجة.

إنه قد يمر بزوجتك أزمات من مرض أو مشكلات، أو تقصير منك أو إساءة، فتبقى هي كاسفة البال، حزينة، صريعة الصداع والدوار، تحتاج إلى حنان زوجها وحبه ليخفف عنها، أمّا تجاهله لها فيزيدها حزنًا إلى حزنها، وغمًا إلى غمها، فانتبهوا أيها الأزواج.

■ **قالت السابعة: «زوجي غَيَايَاء - أو عَيَايَاء - طباقاء، كل داءٍ له داء، شَجّك أو فَلّك، أو جمع كلاً لك».**

معاني المفردات:

«غياياء»: أي الأحمق الذي لا يهتدي إلى مسلك.

---

(١) أي لو كان هذا مرض الموت.
(٢) أي دعي ذكر ما تجدينه من وجع رأسك واشتغلي بي.
(٣) أوصي.
(٤) أي لئلا يقول القائلون.
(٥) متفق عليه.
(٦) فتح الباري (١٠/١٢٨).

«عياياء»: من «العي» الذي لا يستطيع جماع النساء.

«طباقاء»: بلغ الغاية من الحمق.

«كل داء له داء»: أي كل شيء تفرق في الناس من المعايب موجود فيه.

«شجك»: جَرَحك في رأسك.

«فلك»: جَرَحك في جسدك.

قال الزمخشري: ويحتمل أن تكون أرادت أنه ضروب للنساء، فإذا ضرب فإما أن يكسر عظمًا أو يشج رأسًا أو يجمعهما.

الشرح:

قال عياض: وصفته بالحمق، والتناهي في سوء العشرة وجمع النقائض، بأن يعجز عن قضاء وطرها مع الأذى، فإذا حدثته سبَّها، وإذا مازحته شجها، وإذا أغضبته كسر عضواً من أعضائها، أو شق جلدها، أو أغار على مالها، أو جمع كل ذلك من الضرب والجرح وكسر العضو وموجع الكلام، وأخذ المال.

والرجل إذا ضرب زوجته فليضرب ضرب المحب للإصلاح لا ضرب المنتقم، فالضرب في كتاب الله تعالى قيده النبي ﷺ بكونه ضربًا غير مُبَرِّح.

إن المرأة التي يكفيها الوعظ بالقول لا يتخذ الزوج معها سواه، والتي يصلحها الهجر يقف بها عند حده.

أما المرأة التي لا تصلحها المرعظة ولا تكترث بالهجر وتُصر على ما هي عليه من النشوز والترفع على زوجها، فهي امرأة ماتت أحاسيسها، لذا كان لابد أن يكون بيد الرجل الوسيلة الثالثة والأخيرة لإصلاحها، وإرجاعها إلى الحق، وهو التأديب المادي، فيكون الضرب كالدواء الأخير الذي لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة.

(وقد أساء المتحضرون من أبناء المسلمين فَهْمَ هذا النوع من العلاج ووصفوه بأنه علاج صحراوي جاف لا يتفق وطبيعة المتحضر القاضي بتكريم الزوجة وإعزازها.

إن الإسلام لم يكن لجيل خاص ولا بيئة خاصة، وإنما هو إرشاد وتشريع لكل الأجيال ولكل الأقاليم ولكل البيئات.

والواقع أن التأديب لأرباب النشوز والانحراف الذين لا تنفع فيهم الموعظة ولا الهجر أمرٌ تدعو إليه الفطر ويقضي به نظام المجتمع)[1].

إن الزوج المسلم وهو يعالج نشوز زوجته لابد أن يتحلى بالخوف من الله تعالى حتى لا يجور ولا يظلم ولا يتعدى حدود الله تعالى، فيحسن استعمال وسائل العلاج وتكون غايته ترميم ما انهدم وإصلاح ما فسد.

■ **قالت الثامنة: «زوجي المسُّ مسُّ أرنب، والريح ريحُ زرنب».**

معاني المفردات:

«زرنب»: نبت طيب الريح.

الشرح:

وصفته بأنه لين الجسد ناعمه، ويحتمل أن تكون كَنَّت بذلك عن حسن خلقه ولين عريكته، بأنه طيب العرق لكثرة نظافته، واستعماله الطيب تظرفًا، ويحتمل أن تكون كنَّت بذلك عن طيب حديثه، أو طيب الثناء عليه لجميل معاشرته.

والحديث يشير إلى أنه ينبغي على الرجل أن يحرص أن تكون رائحته طيبة، لاسيما وأن من الأشياء المنفرة والتي هُدمت بيوت بسببها هو عدم اهتمام الرجل بنظافته ورائحته.

ألا يتعلم الرجل من رسول الله ﷺ حيث كان يبدأ بالسواك عند دخوله البيت، وهذا منه ﷺ حرص على إزالة أي رائحة كريهة تخرج من الفم.

---

(١) «الإسلام عقيدة وشريعة» للشيخ محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ باختصار.

▪ **قالت التاسعة: «زوجي رفيع العِمَاد، طويل النِّجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من النادِ».**

معاني المفردات:

«النجاد»: حمالة السيف.

«عظيم الرماد»: رماد النار كثير.

الشرح:

«رفيع العماد»: وصفته بطول البيت وعلوه، فإن بيوت الأشراف كذلك، يعلونها ويضربونها في المواضع المرتفعة ليقصدهم الطارقون والوافدون، فطول بيوتهم إما لزيادة شرفهم أو لطول قاماتهم، وقيل: كَنَّت بذلك عن شرفه ورفعة قدره.

«طويل النجاد»: أي صاحب سيف، فأشارت إلى شجاعته.

«عظيم الرماد»: ونار قراه للأضياف لا تطفأ، لتهتدي الضيفان إليها، فيصير رماد النار كثيراً لذلك.

«قريب البيت من الناد»: وصفته بالشرف مع قومه، فهم إذا تعارضوا واشتوروا في أمر أتوا فجلسوا قريبًا من بيته، فاعتمدوا على رأيه وامتثلوا أمره.

أو أنه وضع بيته في وسط الناس ليسهل لقاؤه، ويكون أقرب إلى الوارد وطالب القِرى.

ومحصل كلامها: أنها وصفته بالسيادة والكرم وحسن الخلق وطيب المعاشرة.

والحديث يشير إلى أن هذه المرأة تمدح زوجها بالكرم، والذي كانت العرب تحرص عليه جداً، والسخاء يغطي كل عيب، والبخل لا يظهر حسنة.

وهذا حاتم الطائي رأى ابنه يضرب كلبةً له فقال له: يا بُني لا تضربها فإن لها عليَّ يداً، إنها تَدُلُّ الضيفان عليَّ.

وبعكس حاتم الطائي يأتيك خبر ضيف أبي نوح، وكان أبو نوح بخيلاً جداً، وقد اكتوى ضيفه عنده بالجوع فأنشد قائلاً:

يجوع ضيف أبي نوح بكرة وعشيًا ◘■◘ أجاع بطني حتى وجدتُ طعم المنية

وجاءني برغيف قد أدرك الجاهلية ◘■◘ فقمت بالفأس كيما أدقُ منه شظية

ثُلِمَ الفأس وانصاع مثل سهم الرمية ◘■◘ فشج رأسي ثلاثًا ودقَّ مني ثنية

وقد حثنا النبي ﷺ على الكرم وحذرنا من البخل.

■ قالت العاشرة: «زوجي مالك، وما مالك، مالكٌ خيرٌ من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المِزْهر، أيقن أنهن هوالك».

معاني المفردات:

«وما مالك»: أي ما أعظمه وأكرمه.

«المبارك»: هو موضوع نزول الإبل.

«المسارح»: هو الموضع الذي تطلق لترعى فيه.

«المزهر»: آلة من آلات اللهو.

الشرح:

جمعت في وصفها له بين الثروة والكرم وكثرة القِرى، والاستعداد له والمبالغة في صفاته، فقولها: **«مالك خير من ذلك»** أي إنه خيرٌ مما أشير إليه من ثناء وطيب ذكر، وفوق ما اعتقد فيه من سؤدد وفخر، وهو أجل ممن أصفه لشهرة فضله، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى ما تقدم من الثناء على الذين قبله، وأن مالكًا أجمع من الذين قبله لخصال السيادة والفضل.

وقولها: **«قليلات المسارح»** إنه لاستعداده للضيفان بهاً، لا يوجه منهن إلى المسارح إلا قليلاً، ويترك سائرهن بفنائه، فإن فاجأه ضيف وجد عنده ما يقريه به من لحومها وألبانها.

ولقد حث الإسلام على خلق الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ (سورة سبأ: ٣٩)، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٢).

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللَّهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللَّهم أعط ممسكًا تلفًا»**.

ورويا عنه أيضًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«قال الله تعالى: أنفق يا ابن آدم يُنفق عليك»**.

ورويا عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خير؟ قال: **«تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»**.

■ **قالت الحادية عشرة: «زوجي أبو زرع، فما أبو زرع! أنَاسَ من حُلِيّ أذنيَّ، وملأ من شحم عَضُدِي، وبجحني فبجحت إليَّ نفسي، وجدني في أهل غُنَيْمة بشَق، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومُنَق، فعنده أقول فلا أُقَبَح، وأرقد فأتصبح، وأشرب فأتقنح»**.

معاني المفردات:

«أناس»: أي حرك أو أثقل.

«من حلي أذني»: المراد أنه ملأ أذنيها بماجرت عادة النساء من التحلي به.

«وبجحني»: أي عظمني أو فرحني أو فخرني.

«فبجحت إلي نفسي»: أي عظمت إلي نفسي.

«بشَق»: موضع بالجبل كالغار ونحوه.

«بشِق»: أي كانوا في شظف من العيش.

«صهيل»: أي خيل.

«أطيط»: إبل.

«دائس»: الذي يدوس الطعام، أي أنهم أصحاب زرع.

«منق»: هو الذي له نقيق، قال بعض العلماء: هو الدجاج.

«فلا أقبح»: أي فلا يقال لي قبحك الله، أو لا يقبح قولي ولا يرد علي، لأنه أعزَّها.

«فأتصبح»: أي أنام الصبحة وهي نوم أول النهار فلا أوقظ، وهذا يدل على أن عندها خدمًا.

«فأتقمح»: أي أُروى حتى لا أحب الشرب، وفي بعض الروايات: «أتقنح» أي تأكل وتشرب غصبًا عنها.

الشرح:

قالت: أَكْثَر من أذني الحلي حتى تدلى منها واضطرب وسُمع له صوت، وامتلأت شحمًا من كرمه، وعظمني فعظمت إليَّ نفسي وتبجحت.

وعندما جاء يتزوجني وجدني أعيش أنا وأهلي في فقر وفي غنيمات قليلة نرعاها بشق الجبل، فأصبحت في رفاهية بعد أن كنت في ضنك من العيش، وأصبحت في ثروة واسعة من الخيل والإبل والزرع والطيور وغير ذلك.

وكان لا يُقبح قولي ولا يرده بل أنا مدللة عنده، فعنده أنام إلى الصباح لا يوقظني أحد لعمل، بل هناك الخدم الذين يعملون لي الأعمال، فلا يقول لي: قومي جهزي طعامًا، ولا اعلفي دابة، ولا هيئي المركب، بل هناك من الخدم من يكفيني ذلك، وعندما أشرب أيضًا أشرب حتى أرتوي، وقيل: أشرب على مهل لأني لا أخشى أن ينتهي اللبن فهو موجود دائمًا.

«اناس من حلي اذني... ومنق»: الحاصل أنها ذكرت أنه نقلها من شظف عيش أهلها إلى الثروة الواسعة، من الخيل والإبل والزرع وغير ذلك.

«فعنده أقول...»: تذكر كثرة إكرامه لها، وتدللها عليه، لا يرد لها قولاً، ولا يقبح عليها ما تأتي به، وعندها من يكفيها مؤنة بيتها، ومهنة أهلها.

■ «أم أبي زرع، فما أم أبي زرع! عكومها رداح، وبيتها فساح»:

معاني المفردات:

«عكومها»: جمع عكم وهي الأحمال التي تجمع فيها الأمتعة.

«رداح»: ملأى وثقيلة.

«فساح»: واسع.

الشرح:

وصفت والدة زوجها بأنها كثيرة الآلات والأثاث والقماش، واسعة المال، كبيرة البيت، إما حقيقة فيدل ذلك على عظم الثروة، وإما كناية عن كثرة الخير، ورغد العيش، والبر بمن ينزل بهم، لأنهم يقولون: فلان رحب المنزل، أي يكرم من ينزل عليه، وأشارت بوصف والدة زوجها إلى أن زوجها كثير البر لأمه، وأنه لم يطعن في السن لأن ذلك هو الغالب ممن يكون له والدة توصف بمثل ذلك.

■ «ابن أبي زرع، فما ابن أبي زرع! مضجعه كمسل شطبة ويشبعه ذراع الجفرة»:

معاني المفردات:

«مسل شطبة»: سعفة من الجريد.

«الجفرة»: الأنثى من ولد المعز إذا كان ابن أربعة أشهر وفصل عن أمه وأخذ في الرعي.

الشـرح:

وصفته بهيف القد، وأنه ليس ببطين ولا جاف، قليل الأكل والشرب.

المعنى: أن المضجع الذي ينام فيه الولد صغير قدر عود الحصير الذي يسحب من الحصيرة، أي: إن الولد لا يشغل حيزاً كبيراً في البيت.

■ **«بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها، وغيظ جارتها»:**

معاني المفردات:

«ملء كسائها»: كناية عن كمال شخصها ونعمة جسمها. وقال النووي: أي ممتلئة الجسم وسمينة.

«جارتها»: أي ضرتها، أو هو على حقيقته. قال النووي: يغيظها ما ترى من حسنها وجمالها وعفتها وأدبها.

الشـرح:

كانت بنت أبي زرع مؤدبة وكانت من جمالها وكمال جسمها تغيظ جارتها، وهذا استعمال لطيف للمرأة الأخرى: وهو لفظ الجارة، ولم يقل الضُرَّة.

وكان محمد بن سيرين يقول: إنها ليست بضرة ولا تضر ولا تنفع، وكان يكره أن تسمى المرأة الثانية بالضرة، إنما يقول: جارة.

وهذا الأدب استخدمه عمر بن الخطاب في حديث ابن عباس الطويل في البخاري ومسلم عند قوله: **«لا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك...»**.

■ **«جارية أبي زرع، فما جارية أبي زرع! لا تبث حديثنا تبثيثًا، ولا تنقث ميراثنا تنقيثًا، ولا تملأ بيتنا تعشيشًا»:**

معاني المفردات:

«تبث»: تظهر وتشيع، بل تكتم سرنا وحديثنا كله.

«ولا تنقث»: أي تسرع فيه بالخيانة وتذهب بالسرقة، ومعناه: وصفها بالأمانة وأنها مدبرة.

«ميراثنا»: الطعام المجلوب.

«تعشيشًا»: أي إنها مصلحة للبيت مهتمة بتنظيفه وإلقاء كناسته، وأنها لا تكتفي بقم كناسته وتركها في جوانبه كأنها الأعشاش.

■ **«قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تمخض، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين، فطلقني ونكحها»:**

معاني المفردات:

«الأوطاب»: أوعية اللبن.

«تمخض»: أي تُخض كي يستخرج منها الزبد والسمن.

«برمانتين»: معناه أن لها نهدين حسنين صغيرين كالرمانتين.

الشرح:

قال يعقوب بن السكيت: أرادت أنه يبكر بخروجه من منزلها غدوة وقت قيام الخدم والعبيد لأشغالهم، وانطوى في خبرها كثرة خير داره وغزر لبنه، وأن عندهم ما يكفيهم ويفضل حتى يمخضوه ويستخرجوا زبده، وسُرَّ بولديها وأُعجب بهما، ومن ثمَّ أحب أن يرزق منها بالولد.

وذكر بعض أهل العلم أن معناه: أن إليتيها عظيمتان فإذا استقلت على ظهرها ارتفع جسمها الذي يلي إليتها من ناحية ظهرها عن الأرض حتى لو جاء الطفلان يرميان الرمانة من تحتها مرت الرمانة من تحت ظهرها، وذلك من عظم إليتيها.

وقول آخـر: أن الطفلين يلعبان وهما مـجاوران لها، ومنهم من حـمل الرمانتين على ثدييها، ودلَّل بذلك على صغر سنها أي أن ثدييها لم يتدليا من الكبر.

▪ **«فنكحت بعـده رجـلاً سـريًا، ركب شَـريًا، وأخـذ خَطيًـا، وأراح علي نِعـمًـا ثريًا، وأعطاني من كل رائحة زوجًا، وقال: كلي أم زرع وميري أهلك»:**

معاني المفردات:

«سريًا»: أي من سُراة الناس وهم كبراؤهم في حسن الصورة والهيئة.

«شريًا»: فرسًا خيارًا فائقًا.

«واخذ خطيًا»: وأخذ رمحًا خطيًا، والخط موضع بناحية البحرين تجلب منه الرماح.

«وأراح عليَّ»: أتى بها إلى المراح وهو مـوضع مبيت الماشيـة. قال ابن أبي أويس: معناه أنه غزا فغنم، فأتى بالنعم الكثيرة.

«نعمًا»: الإبل.

«ثريًا»: أي كثيرة.

«من كل رائحة زوجًا»: أي من كل شيء يذبح زوجًا.

«ميري أهلك»: أي صليهم وأوسعي عليهم بالطعام.

الشـرح:

وصفته بالسؤدد في ذاته والشجـاعة، والفضل والجود بكونه أباح لها أن تأكل ما شاءت من ماله وتـهدي منه ما شاءت لأهلها مـبالغة في إكرامـها، ومع ذلك فكانت أحواله عندها محتقرة بالنسبة لأبي زرع، وكان سبب ذلك أن أبا زرع كان أول زواجها فسكنت محبته في قلبها.

■ «قالت: ولو جمعت كل شيء أعطانيه، ما بلغ أصغر آنية أبي زرع»:

الشرح:

أي لو جمعت كل شيء أصابته منه، فجعلته في أصغر وعاء من أوعية أبي زرع ما ملأه.

وهذا من وفائها لزوجها، مع أن المرأة المطلقة ـ في الغالب ـ لا تكاد تذكر لزوجها السابق حسنة، وهذا الرجل لم يُقصر في حقها بل قال لها: «كلي أم زرع وميري أهلك»، فلتتعلم المطلقات هذا الوفاء وحسن الخلق.

إذن ما هو الفرق بين هذا الرجل وأبي زرع؟

إنه الحنان ودفء الحياة الزوجية، فهي لم تشعر بذلك مع الرجل الثاني مثلما شعرت به مع أبي زرع.

لذلك فالرجل لا يستطيع أن يشتري قلب المرأة بالمال أبدًا، وإنما يشتري قلبها بالحب والمودة والرحمة.

ما الفائدة أن يأتي الرجل للمرأة في بيتها بكل شيء من متاع الدنيا، ولكنها تفتقد إلى الكلمة الطيبة والابتسامة الحانية والمعاملة الحسنة؟!

■ قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع»:

الشرح:

أي: كنت لك في سابق علم الله، كأبي زرع لأم زرع في الوفاء والألفة، وزاد النسائي في رواية له والطبراني: «قالت عائشة: يا رسول الله بل أنت خير من أبي زرع»، وفي رواية: «بأبي وأمي لأنت خير لي من أبي زرع لأم زرع»، وكأنه ﷺ قال ذلك تطييبًا لها وطمأنينة لقلبها، ودفعًا لإبهام عموم التشبيه بجملة أحوال أبي زرع؛ إذ لم يكن فيه ما تذمه النساء سوى ذلك.

وفي الختام أقول:

قال الحافظ في الفتح: «وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم: حسن عشرة المرء أهله بالتأنيس والمحادثة بالأمور المباحة ما لم يفض ذلك إلى ما يمنع، وفيه المزح أحيانًا وبسط النفس به ومداعبة الرجل أهله وإعلامه بمحبته لها ما لم يؤد ذلك إلى مفسدة تترتب على ذلك من تجنيها عليه وإعراضها عنه. وفيه منع الفخر بالمال وبيان جواز ذكر الفضل بأمور الدين، وإخبار الرجل أهله بصورة حاله معهم وتذكيرهم بذلك لاسيما عند وجود ما طبعن عليه من كفر الإحسان. وفيه ذكر المرأة إحسان زوجها، وفيه إكرام الرجل بعض نسائه بحضور ضرائرها بما يخصها به من قول أو فعل، ومحله عند السلامة من الميل المفضي إلى الجور، وقد تقدم في أبواب الهبة جواز تخصيص بعض الزوجات بالتحف واللطف إذا استوفى للأخرى حقها. وفيه جواز تحدث الرجل مع زوجته في غير نوبتها.

وفيه الحديث عن الأمم الخالية وضرب الأمثال بهم اعتبارًا، وجواز الانبساط بذكر طرف الأخبار ومستطابات النوادر تنشيطًا للنفوس. وفيه حض النساء على الوفاء لبعولتهن وقصر الطرف عليهم والشكر لجميلهم، ووصف المرأة زوجها بما تعرفه من حسن وسوء، وجواز المبالغة في الأوصاف، ومحله إذا لم يصر ذلك ديدنًا لأنه يفضي إلى خرم المروءة. وفيه تفسير ما يجمله المخبر من الخبر إما بالسؤال عنه وإما ابتداءً من تلقاء نفسه.

وفيه أن ذكر المرء بما فيه من العيب جائز إذا قصد التنفير عن ذلك الفعل ولا يكون ذلك غيبة، أشار إلى ذلك الخطابي، وتعقبه أبو عبد الله التميمي شيخ عياض بأن الاستدلال بذلك إنما يتم أن لو كان النبي ﷺ سمع المرأة تغتاب زوجها فأقرها، وأما الحكاية عمن ليس بحاضر فليس كذلك، وإنما هو نظير من قال: في الناس شخص يسيء، ولعل هذا هو الذي أراده الخطابي فلا تعقب عليه. وقال المازري: قال بعضهم: ذكر بعض هؤلاء النسوة أزواجهن بما يكرهون ولم يكن ذلك غيبة لكونهم لا يعرفون بأعيانهم وأسمائهم.

قال المازري: وإنما يحتاج إلى هذا الاعتذار لو كان من تحدث عنده بهذا الحديث سمع كلامهن في اغتياب أزواجهن فأقرهن على ذلك، فأما والواقع خلاف ذلك وهو أن عائشة حكت قصة عن نساء مجهولات غائبات فلا، ولو أن امرأة وصفت زوجها بما يكرهه لكان غيبة محرمة على من يقوله ويسمعه، إلا أن كانت في مقام الشكوى منه عند الحاكم، وهذا في حق المعين، فأما المجهول الذي لا يعرف فلا حرج في سماع الكلام فيه لأنه لا يتأذى إلا إذا عرف أن من ذكر عنده يعرفه، ثم إن هؤلاء الرجال مجهولون لا تُعرف أسماؤهم، ولا أعيانهم فضلاً عن أسمائهم، ولم يثبت للنسوة إسلام حتى يجري عليهن الغيبة فبطل الاستدلال به لما ذكر.

وفيه تقوية لمن كره نكاح من كان لها زوج لما ظهر من اعتراف أم زرع بإكرام زوجها الثاني لها بقدر طاقته، ومع ذلك فحقرته وصغرته بالنسبة إلى الزوج الأول، وفيه أن الحب يستر الإساءة لأن أبا زرع مع إساءته لها بتطليقها لم يمنعها ذلك من المبالغة في وصفه إلى أن بلغت حد الإفراط والغلو.

وقد وقع في بعض طرقه إشارة إلى أن أبا زرع ندم على طلاقها وقال في ذلك شعراً، ففي رواية عمر بن عبد الله بن عروة عن جده عن عائشة أنها حدثت عن النبي ﷺ عن أبي زرع وأم زرع وذكرت شعر أبي زرع على أم زرع. وفيه جواز وصف النساء ومحاسنهن للرجل، لكن محله إذا كن مجهولات، والذي يمنع من ذلك وصف المرأة المعينة بحضرة الرجل أو أن يذكر من وصفها ما لا يجوز للرجال تعمد النظر إليه، وفيه أن التشبيه لا يستلزم مساواة المشبه بالمشبه به من كل جهة لقوله ﷺ: «**كنت لك كأبي زرع**» والمراد ما بينه بقوله في رواية الهيثم في الألفة إلى آخره لا في جميع ما وصف به أبو زرع من الثروة الزائدة والابن والخادم وغير ذلك وما لم يذكر من أمور الدين كلها.

وفيه أن كناية الطلاق لا توقعه إلا من مصاحبة النية، فإنه ﷺ تشبه بأبي زرع، وأبو زرع قد طلق فلم يستلزم ذلك وقوع الطلاق لكونه لم يقصد إليه. وفيه

جواز التأسي بأهل الفضل من كل أمة لأن أم زرع أخبرت عن أبي زرع بجميل عشرته فامتثله النبي ﷺ، كذا قال المهلب واعترضه عياض فأجاد، وهو أنه ليس في السياق ما يقتضي أنه تأسى به، بل فيه أنه أخبر أن حاله معها مثل حال أم زرع، نعم ما استنبطه صحيح باعتبار أن الخبر إذا سيق وظهر من الشارع تقريره مع الاستحسان له جاز التأسي به، ونحو مما قاله المهلب قول آخر: إن فيه قبول خبر الواحد لأن أم زرع أخبرت بحال أبي زرع فامتثله النبي ﷺ وتعقبه عياش أيضًا فأجاد، ، نعم يؤخذ منه القبول بطريق أن النبي ﷺ أقره ولم ينكره، وفيه جواز قول: بأبي وأمي، ومعناه فداك أبي وأمي.

وفيه جواز مدح الرجل في وجهه إذا علم أن ذلك لا يفسده، وفيه أن من شأن النساء إذا تحدثن أن لا يكون حديثهن غالبًا إلا في الرجال، وهذا بخلاف الرجال فإن غالب حديثهم إنما هو فيما يتعلق بأمور المعاش، وفيه جواز الكلام بالألفاظ الغريبة واستعمال السجع في الكلام إذا لم يكن مكلفًا قال عياض ما ملخصه: في كلام هؤلاء النسوة من فصاحة الألفاظ وبلاغة العبارة والبديع ما لا مزيد عليه، ولاسيما كلام أم زرع، فإنه مع كثرة فصوله وقلة فضوله مختار الكلمات، واضح السمات، نير النسمات، قد قدرت ألفاظه قدر معانيه وقررت قواعده وشيدت مبانيه، وفي كلامهن ولاسيما الأولى والعاشرة أيضًا من فنون التشبيه والاستعارة والكناية والإشارة والموازنة والترصيع والمناسبة والتوسيع والمبالغة والتسجيع والتوليد وضرب المثل وأنواع المجانسة وإلزام ما لا يلزم والإيغال والمقابلة والمطابقة والاحتراس وحسن التفسير والترديدي وغرابة التقسيم وغير ذلك أشياء ظاهرة لمن تأملها، وكمل ذلك أن غالب ذلك أفرغ في قالب الانسجام، وأتى به الخاطر بغير تكلف، وجاء لفظه تابعًا لمعناه منقادًا له غير مستكره ولا منافر، والله يمنُّ على من يشاء بما شاء لا إله إلا هو)[1].

---

(١) فتح الباري (٩/ ١٨٥-١٨٧) بتصرف واختصار.

الحديث الثاني عشر

في حُكْم التسوية
بين الزوجات في المحبة

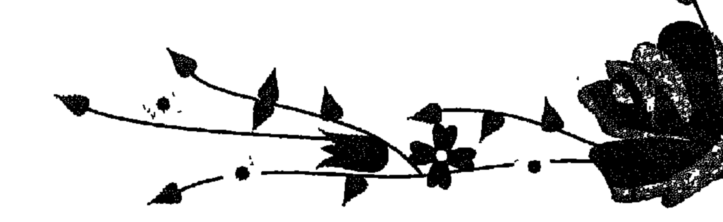
عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مِرْطي؛ فأذن لها، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، وأنا ساكتة. قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: «أي بنية... ألست تحبين ما أحب؟» فقالت: بلى. قال: «فأحبي هذه» قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال لها رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ، فقولي له: إن أزواجك يَنْشُدْنَكَ العدل في ابنة أبي قحافة، فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً.

قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرَّب به إلى الله تعالى، ما عدا سَوْرة من حِدَة كانت فيها تسرع منها الفَيْئَة.

قالت: فاستأذنت على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحالة التي دخلت فاطمة عليها

وهو بها، فأذن لها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة. قالت: ثم وقعت بي فاستطالت عليَّ وأنا أرقب رسول الله ﷺ وأرقب طرفه، هل يأذن لي فيها.

قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر، قالت: فلما وقعت بها لم أنْشَبْها حتى أنحيتُ عليها، قالت: فقال رسول الله ﷺ وتبسَّم: «إنها ابنة أبي بكر»[1].



الدروس المستفادة:

١ - هل يجب على الرجل التسوية في محبة القلب لزوجاته؟

قول فاطمة رضي الله عنها: «يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة» معناه:

يسألنك التسوية بينهن في محبة القلب، وكان ﷺ يسوِّي بينهن في الأفعال والمبيت ونحوه، وأما محبة القلب فكان يحب عائشة أكثر منهن.

وأجمع المسلمون على أن محبتهن لا تكليف فيها، ولا يلزمه التسوية فيها؛ لأنه لا قدرة لأحد عليها إلا الله سبحانه وتعالى، وإنما يؤمر بالعدل في الأفعال والذي كان

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨١) (٥/ ٢٤٣)، ومسلم (٢٤٤٢)، والنسائي في «عشرة النساء» (٦).

حاصلاً قطعًا، ولهذا كان يُطاف به ﷺ في مرضه عليهن حتى ضعف، فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة فأذنَّ له[1].

يقول الأستاذ خاشع حقي: (وأما قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (سورة النساء:١٢٩)، وهي الآية التي يتخذها كثير من الناس دليلاً لهم على أن العدل مستحيل بناء على فهمهم لظاهر الآية والأخذ بشطر منها دون الشطر الثاني أو تكملتها، ولو أنهم أكملوها إلى نهايتها لوجدوا أن المعنى الذي ذهبوا إليه وهو استحالة العدالة غير وارد، إذ يقول تعالى: ﴿فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ وهذا ما يقوله القاضي البيضاوي حيث يذكره في تفسيره: لأن العدل ألا يقع ميل البتة وهو متعذر. ﴿فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ بترك المستطاع وهو العدل في المبيت والنفقة... إلخ والجور على المرغوب عنها فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

فالمقصود بتعذر العدل هو العدل القلبي لا الظاهري ـ كما يفهم من كلام البيضاوي ـ وهذا هو المعنيُّ بقوله: ما لا يدرك كله لا يترك كله. أي أن المتعدد بتعذر عليه العدل القلبي ولكن لا يتعذر عليه العدل الظاهري وهو القَسْم في المبيت والعدل في النفقة والسكنى وما أشبه ذلك فإنه بإمكان الزوج أن يعدل في ذلك.

والذي يوضح هذا المعنى من الآية أتم توضيح السنة المطهرة وهي المصدر الثاني اللتشريع، وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (سورة النحل.٤٤).

ومن بيانه ﷺ لهذه الآية الكريمة أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: **«اللَّهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»**[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أصحاب السنن وابن حبان من حديث عائشة رضي الله عنها. وهو حديث ضعيف.

وفي رواية: «**اللهم هذا جهدي فيما أملك، ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك**»

والمقصود من قوله ﷺ: «**فيما أملك**»: القسم الظاهري - وفيما لا يملك: قلبه، إذ لا يملك الإنسان السيطرة على قلبه وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.

والأب قد يحب ولدًا من أولاده أكثر من الآخرين لأمور معنوية يعجز الإنسان عن تفسيرها، فهل يلام على ذلك؟ أبدًا. شريطة ألا يجور على الباقين من الأولاد، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي على تحري العدل (القلبي) وبَالغْتُم فيه فإنكم عاجزون؛ لأن المحبة القلبية بيد الله تعالى وهي غير مطلوبة وهي المنفية في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾، ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة)[1].

٢ - وإذا قلتم فاعدلوا:

لم يمنع التعدد عائشة رضي الله عنها أن تقول كلمة حق في زينب بنت جحش رضي الله عنها فقالت: «**وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل لرحم، وأعظم للصدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرّب به إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفيئة**».

فتقول عائشة رضي الله عنها أن زينب رضي الله عنها هي التي كانت تعادلها وتساويها في الحظوة والمنزلة الرفيعة عند رسول الله ﷺ، ثم أخذت تعدد الصفات الطيبة فيها، ثم ذكرت فيها صفة سلب وهي أنها سريعة الغضب ولكنها إذا وقع منها ذلك رجعت عنه سريعًا ولا تصر عليه، فأثنت عليها حتى بعدما ذكرت فيها هذه الصفة السلبية.

---

(١) «تعدد الزوجات أم تعدد العشيقات» (ص. ٧٠-٧٢)، وانظر رسالة «موقف المرأة الصالحة من التعدد»، ورسالة «إلى الأزواج العازبين على التعدد» للمؤلف.

فأين هذا الموقف الإيماني الراقي من موقف كثير من النساء في سوء معاملتهن لضرائرهن من الغيبة والنميمة، وربما السعي عند زوجها لطلاق الأخرى، فضلاً عن رغبتها الشيطانية في ألا يلتقي أولاد هذه مع تلك فتقطع بذلك أواصر المحبة والأخوة في الله بين الإخوة والأخوات؟!!

أين هذا الموقف الإيماني الراقي من موقف بعض النساء التي تظن الواحدة منهن أن زوجها قد تزوج عليها؛ لأن الزوجة الجديدة قد عملت له «سحراً» كي يتزوجها؟!!

لماذا لا تتقي كل مسلمة ربها في كل كلمة تخرج من لسانها، ولا تقول في أختها إلا الحق، ولماذا تظن إحدى الزوجات أنها في حرب ضارية وصراعات مع الزوجة الأخرى تكسب من خلالها جولات وجولات؟!

لماذا لا نهتم بتنظيف قلوبنا وتطهيرها من الغل والحقد والحسد؟!

ولماذا لا نتذكر مبيت أول ليلة في القبر ونحن نسعى في الإفساد هنا أو هناك؟!

يقول الأستاذ محمد رشيد العويد: «على الرغم من الخصومة التي كانت بين أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين زينب ﵄، فإن عائشة أنصفتها في حديثها عنها، وذكرت أخلاقًا كريمة كثيرة منها، وذلك في قولها عنها:

١ ـ «لم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب».

٢ ـ «وأتقى لله».

٣ ـ «وأصدق حديثًا».

٤ ـ «وأوصل للرحم».

٥ ـ «وأعظم صدقة».

٦ ـ «وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرّب به إلى الله تعالى».

هذه صفات وأخلاق عـالية لا تكاد تذكرها امرأة عن امرأة صديقة لهـا، متعلقة بها، تحمل لها في قلبهـا الود والحب، فكيف يمكن أن تذكرها زوجة عن ضرتها وهي تروي خلافًا كان بينهما؟! ألا يشير ذكر السـيدة عائشة لجميع هذه الصفات والأخلاق العظيمة في ضرتها السيدة زينب إلى إنصافها وعدلها.

إن في هذا الثناء الجزيل من السـيدة عائشة شهـادة عظيمة على رجاحـة عقلها، ونبل نفسها، وقوة إيمانها الذي جعلها تـذكر هذا الخير الكثير في واحدة من ضرائرها المنافسـة لها، بل أكـثرهن منافـسة لهـا، كما نـفهم من قولهـا عنها بأنهـا «هي التي تساميني» أي تعادلها وتضاهيها في الحظوة والمنزلة الرفيعة عند النبي ﷺ.

■ وفي هذا درس لكل امرأة بإنصـاف غيرها من النساء مـهما كان الخـلاف بينها وبين إحداهن شـديدًا، فتذكر مـا فيهـا من خير، ولا تنسب إليـها ما ليس فيـها من صفات أو أخلاق غير حسنة.

■ ولعل قارئة تقول: ولكن السيدة عائشة ذكرت صفة سلبية في السيدة زينب في قولها عنها: **«ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفيئة»**، والرد على ذلك من وجهين:

الأول ـ أن ما وصـفتها به (سـورة من حدة) إشارة إلى طبع أكثـر منه إشارة إلى خُلُق، وليس في هذا انتقاص إن شاء الله.

الثاني ـ أن السيدة عائشة أتبعت هذا الوصف باستدراك جعل ما ذكرته خلقًا طيبًا في أم المؤمنين زينب وهو قولها: **«كانت تسرع منها الفيئة»** أي أنها إذا ثارت غاضبة، فسرعان ما ترجع عن غضبـها هذا، وتفيء عنه، ولا تصر عليه، وهو ثناء جزيل من أم المؤمنين عائشة على أم المؤمنين زينب، رضي الله عن أمهات المؤمنين جميعًا»[1].

---

(١) «أحاديث المرأة في الصحيحين» (٢/ ٥٧، ٥٨).

فوائد أخرى[١] :

■ قولها: «وأنا أرقب رسول الله ﷺ وأرقب طرفه هل يأذن لي فيها» يقول النووي ـ رحمه الله ـ مبينًا: «اعلم أنه ليس فيه دليل على أن النبي ﷺ أذن لعائشة، ولا أشار بعينه، ولا غيرها، بل لا يحل اعتقاد ذلك، فإنه ﷺ تحرم عليه خائنة الأعين، وإنما فيه أنها انتصرت لنفسها فلم ينهها عليه الصلاة والسلام».

■ قوله ﷺ : «إنها ابنة أبي بكر» معناه ـ كما يقول النووي ـ: «الإشارة إلى كمال فهمها وحسن نظرها والله أعلم».

■ هذا الحديث يحتاج إلى وقفات كثيرة وطويلة، أختار منها هنا ثلاثة:

أولاً ـ كان واضحًا حياء السيدة فاطمة ﵂ وأرضاها، فهي تستأذن على النبي ﷺ ، وتنقل إليه ما حملها إياه أزواجه ﷺ بنصه، لا تزيد عليه شيئًا، وتمتثل إلى ما دعاها إليه والدها، وتقوم من فورها حين سمعت رده عليه الصلاة والسلام[٢] .

كان واضحًا أدبها مع أبيها النبي ﷺ ، فلم تجادله ولم تناقشه حتى إن أمهات المؤمنين لاحظن ذلك، فقلن لها حين عادت إليهن: «ما نراك أغنيت عنا من شيء».

وتأكد هذا الحياء والأدب حين أبت الاستجابة إلى طلب أزواجه ﷺ منها أن ترجع ثانية إلى أبيها لتكلمه من جديد، حيث قالت في إصرار: «والله لا أكلمه فيها أبداً».

---

(١) «المصدر السابق» (ص: ٥٦، ٥٧).

(٢) أين هذا من موقف بعض البنات السيء عندما يقفن مع والدتهن ضد أبيهن الذي تزوج على والدتهن، لا لحق ولا لشرع، وإنما لهوى وجاهلية وعاطفة محضة للأم دون عدل أو تقوى أوخوف من الله تعالى.

ثانيًا ـ وصفت السيدة عائشة موقف النبي ﷺ مما كان بينها وبين السيدة زينب بقولها: «فقال رسول الله ﷺ وتبسم: **«إنها ابنة أبي بكر»**، فقولها: «. . . وتبسم» يشير إلى أنه ﷺ حرص على إضفاء جو المرح على ما ثار بين زوجتيه، وإبعاد ما يمكن أن يؤدي إليه خلافهما من شحناء.

وفي هذا توجيه للأزواج بأن يضفوا مثل هذا الجو المرح على ما يحدث من خلاف بين زوجاتهم، أو بين زوجة الرجل وبين أمه أو شقيقته.

وقال الحافظ في «الفتح»: «وفي هذا الحديث منقبة ظاهرة لعائشة، وأنه لا حرج على المرء في إيثار بعض نسائه بالتحف، وإنما اللازم العدل في المبيت والنفقة ونحو ذلك من الأمور اللازمة، كذا قرره ابن بطال عن المهلب، وتعقبه ابن المنير بأن النبي ﷺ لم يفعل ذلك وإنما فعله الذين أهدوا له وهم باختيارهم في ذلك، وإنما لم يمنعهم النبي ﷺ لأنه ليس من كمال الأخلاق أن يتعرض الرجل إلى الناس بمثل ذلك لما فيه من التعرض لطلب الهدية، وأيضًا فالذي يهدي لأجل عائشة كأنه ملك الهدية بشرط، والتمليك يتبع فيه تحجير المالك، مع أن الذي يظهر أنه ﷺ كان يشركهن في ذلك، وإنما وقعت المنافسة لكون العطية تصل إليهن من بيت عائشة.

وفيه قصد الناس بالهدايا أوقات المسرة ومواضعها ليزيد ذلك في سرور المهدى إليه. وفي تنافس الضرائر وتغايرهن على الرجل، وأن الرجل يسعه السكوت إذا تقاولن، ولا يميل من بعض على بعض. وفيه جواز التشكي والتوسل في ذلك، وما كان عليه أزواج النبي ﷺ من مهابته والحياء منه حتى راسلته بأعز الناس عنده فاطمة. وفيه سرعة فهمهن ورجوعهم إلى الحق والوقوف عنده. وفيه إدلال زينب بنت جحش على النبي ﷺ لكونها كانت بنت عمته، كانت أمها أميمة ـ بالتصغير ـ بنت عبد المطلب. قال الداودي: وفيه عذر النبي ﷺ لزينب، قال ابن

التين: ولا أدري من أين أخذه، قلت: كأنه أخذه من مخاطبتها النبي ﷺ لطلب العدل مع علمها بأنه أعدل الناس، لكن غلبت عليها الغيرة فلم يؤاخذها النبي ﷺ بإطلاق ذلك، وإنما خص زينب بالذكر لأن فاطمة عليها السلام كانت حاملة رسالة خاصة، بخلاف زينب فإنها شريكتهن في ذلك بل رأسهن، لأنها هي التي تولت إرسال فاطمة أولاً ثم سارت بنفسها»[1].

(فصل) بين موقف مشرف وموقف سيء:

أختم الحديث هنا عن موقفين: أحدهما: يشعرك بمدى غربة الدين حتى بين بعض الملتزمين والملتزمات ـ للأسف ـ في مسألة التعدد. والثاني: يشعرك بمدى التقوى والخوف من الله تعالى، ويعطينا نموذجًا راقيًا من نماذج الإيمان بين امرأتين.

فأما المثال الأول:

فرجل تزوج بزوجة ثانية بعد سبع سنوات من إزالة زوجته الأولى لرحمها، وبعدما تعذَّب وتألم آلامًا شديدة بسبب عدم اقترابه من زوجته طيلة هذه السنوات السبع.

ومع ذلك فلم ترحمه هي وبعض بناتها، فادعت زوجته هذه ـ الأولى ـ عليه أنه على علاقة بأخت الزوجة الجديدة، واتصلت بها هاتفيًا وأخبرتها بذلك!

ألهذه الدرجة تطعن في زوجها في شرفه وفي دينه؟!

ألهذه الدرجة نكذب ونخون وننسى الحساب يوم القيامة؟!

---

(١) فتح الباري (٥/ ٢٤٦, ٢٤٧).

وللأسف وقفت بعض بناتها معها ضد أبيهن بكل الظلم والعقوق ونسين جميعًا يوم الطامة الكبرى! ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (سورة عبس: ٣٤-٣٧).

وأما المثال الثاني ـ والذي يهدئ من ألم النفس والظلم ـ:

أنه كان ببغداد رجل بزَّار له ثروة فبينما هو في حانوته أقبلت إليه صبية فالتمست منه شيئًا تشتريه، فبينا هي تحادثه كشفت وجهها في خلال ذلك، فتحير وقال: قد والله تحيَّرت مما رأيت، فقالت: ما جئت لأشتري شيئًا إنما لي أيام أتردَّد إلى السوق ليقع بقلبي رجلٌ أتزوجه، وقد وقعت أنت بقلبي ولي مال، فهل لك في التزوُّج؟ فقال لها: لي ابنة عم وهي زوجتي، وقد عاهدتها ألا أغيرها، ولي منها ولد، فقالت: قد رضيت أن تجيء إليَّ في الأسبوع نوبتين، فرضى، وقام معها فعقد ومضى إلى منزلها فدخل بها.

ثم ذهب إلى منزله فقال لزوجته: إن بعض أصدقائي قد سألني أن أكون الليلة عنده، ومضى فبات عندها، وكان يمضي كلَّ يوم بعد الظهر إليها.

فبقى على هذا ثمانية أشهر، فأنكرت ابنة عمه أحواله فقالت لجارية لها: إذا خرج فانظري أين يمضي؟ فتبعته الجارية فجاء إلى الدكان فلما جاء الظهر قام وتبعته الجارية وهو لا يدري، إلى أن دخل بيت تلك المرأة. فجاءت الجارية إلى الجيران فسألتهم لمن هذه الدار؟ فقالوا: لصبية قد تزوجت برجل تاجر بزار. فعادت إلى سيدتها فأخبرتها، فقالت لها: إياك أن يعلم بهذا أحد. ولم تُظهر لزوجها شيئًا.

فأقام الرجل تمام السنة ثم مرض ومات وخلَّف ثمانية آلاف دينار فعمدت المرأة التي هي ابنة عمه إلى ما يستحقه الولد من التركة وهو سبعة آلاف دينار فأفردتها

وقسَّمت الألف الباقية نصفين، وتركت النصف في كيس، وقالت للجارية: خذي هذا الكيس واذهبي إلى بيت المرأة وأعلميها أن الرجل مات، وقد خلَّف ثمانمائة آلاف دينار، وقد أخذ الابن سبعة آلاف بحقه، وبقيت ألف فقسمتها بيني وبينك وهذا حقك، وسلِّميه إليها.

فمضت الجارية فطرقت عليها الباب ودخلت وأخبرتها خبر الرجل وحدثتها بموته وأعلمتها الحال، فبكت وفتحت صندوقها وأخرجت منه رقعة وقالت للجارية: عُودي إلى سيدتك وسلمي عليها عني وأعلميها أن الرجل طلَّقني وكتب لي براءة، وردي عليها هذا المال فأني ما أستحق في تركته شيئًا.

فسبحان الله! يقف المرء مبهورًا من موقف المرأتين: الأولى: لم تقم الدنيا على زوجها لأنه تزوج بأخرى، ولم تقل له: إن نفسيتي قد تغيرت منك بسبب زواجك بأخرى، ولم تهجر فراشًا، ولم تغتابه أو تطعن فيه! حتى بعد موت زوجها لم تأكل حق الزوجة الثانية في الميراث.

وأرسلت لها ما تستحق من الميراث، ولم تكن تعلم بعد أن زوجها طلقها.

والثانية: لم تخفي ورقة الطلاق وتأكل الميراث بالباطل، بل أظهرت ورقة الطلاق، وأوضحت أنه لا حق لها في الميراث.

ألا فلتستحي المتمردات الناشزات العاصيات لله تعالى، الكافرات بحق العشير.


الفهرس

الفهرس

الموضـوع صفحة

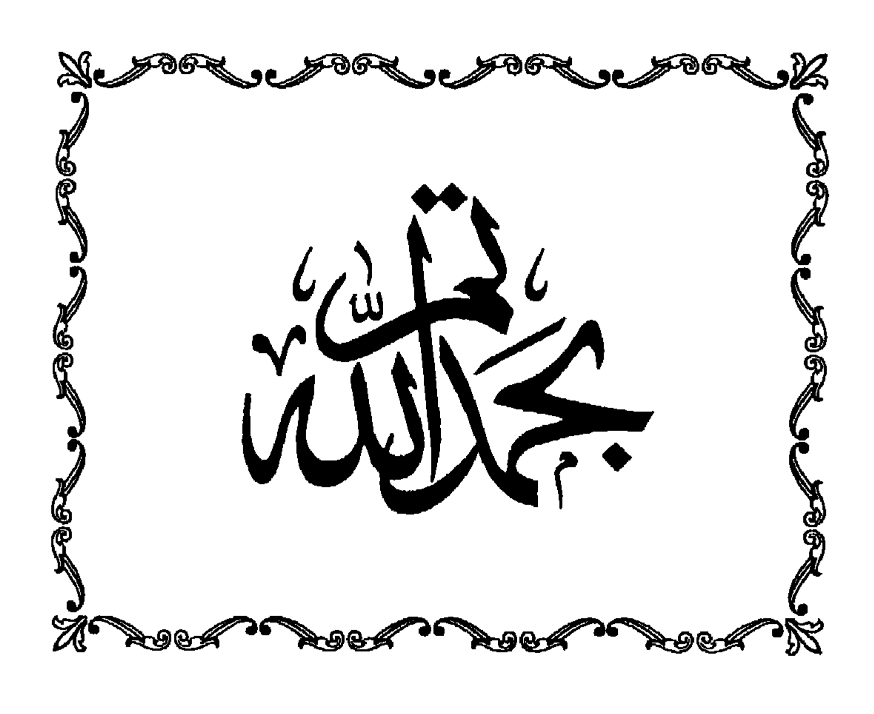
الموضوع | صفحة

الحديث الثامن

إنكار المنكر داخل البيت المسلم ٨٧

الحديث التاسع

حادثة الإفك ـ وامتحان عسير للنبي والأمة ١٠٢


تم بحمد الله